

العنوان:	مناظرات ابن حزم : دراسة تحليلية
المؤلف الرئيسي:	الغزوي، سمير خالد احمد
مؤلفين آخرين:	الموسى، يونس خيرو الشنونا(مشرف)
التاريخ الميلادي:	2014
موقع:	اربد
الصفحات:	1 - 313
رقم MD:	722286
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
اللغة:	Arabic
الدرجة العلمية:	رسالة دكتوراه
الجامعة:	جامعة اليرموك
الكلية:	كلية الآداب
الدولة:	الاردن
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	ابن حزم، علي بن حزم، ت 384هـ، المناظرات العلمية
رابط:	<a href="http://search.mandumah.com/Record/722286">http://search.mandumah.com/Record/722286</a>

للاستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب أسلوب الاستشهاد المطلوب:

أسلوب APA

الغزوي، سمير خالد احمد، و الموسى، يونس خيرو الشنوان. (2014). مناظرات ابن حزم: دراسة تحليلية  
(رسالة دكتوراه غير منشورة). جامعة اليرموك، اربد. مسترجع من  
<http://search.mandumah.com/Record/722286>

أسلوب MLA

الغزوي، سمير خالد احمد، و يونس خيرو الشنوان الموسى. "مناظرات ابن حزم: دراسة تحليلية" رسالة  
دكتوراه. جامعة اليرموك، اربد، 2014. مسترجع من <http://search.mandumah.com/Record/722286>

## الباب الثالث

### أدبية مناظرات ابن حزم

الفصل الاول: التناس في مناظرات ابن حزم

الفصل الثاني: معجم ابن حزم اللغوي من خلال المناظرات

الفصل الثالث: شعرية نثر ابن حزم من خلال المناظرات

(الشعرية والروحانية واللين)

## الفصل الأول

### التنّاص في مناظرات ابن حزم

- ١ - التنّاص الديني في مناظرات ابن حزم
- ٢ - التنّاص مع الشخصيات في مناظرات ابن حزم
- ٣ - التنّاص مع الشعر في مناظرات ابن حزم
- ٤ - التنّاص مع الأمثال والأقوال في مناظرات ابن حزم
- ٥ - التنّاص التاريخي في مناظرات ابن حزم

## توطئة

قبل الحديث عن التناصّ عند ابن حزم لابد أن نتعرف بإيجاز إلى التناصّ عموماً، وإلى علاقته بالتضمين، وهل هو حتميّ التشكل؟ وما هي أنواعه وفوائده؟  
أمّا تعريفه اللغوي، فيقال: "هذه الفلاة تناصي أرض كذا وتواصيها أي تتصل بها. والمفازة تنصو المفازة وتناصيها أي تتصل بها"<sup>١</sup>. واصطلاحاً يعرفه (محمد مفتاح) بأنّه: "تعلق (الدخول في علاقة) نصوص مع نص بكيفيات مختلفة"<sup>٢</sup>.

وعند ذكر التناصّ، فإنّ مصطلحاً آخر يحضر وهو التضمين (connotation)، وهو مصطلح ضارب بجذوره في البلاغة العربية، أمّا التناصّ (Intertextuality) فهو مصطلح غربي وافد، ظهر في النصف الثاني من القرن العشرين في فرنسا، وانطلق إلى بقية دول أوروبا وأمريكا<sup>٣</sup>، ثمّ دخل حقل النقد العربي مؤخراً، بكل ما يحمله من إحياءات وثقافة للآخر<sup>٤</sup>. ولا يفهم من حادثة هذا المصطلح أنّ النقد العربي كان في غفل عن معناه، بل إنّ جذور التناصّ متأصلة في نقدنا العربي القديم، وقد دار نقادنا القدماء حوله، لكن -بالطبع- ليس بتشابهه الحالي وتعقيده الفكري<sup>٥</sup>.

وللحق، فإنّ التناصّ قطع أشواطاً أبعد من التضمين، ففي التناصّ بدلاً من الإقتصار على الإقتباس أو النقل وتداخل النصوص في حدود ضيقة، انتقل إلى تفاعل عميق وخلاق بين هذه النصوص فيما بينها من جهة، وتفاعل آخر بين هذه النصوص مع المحيط الذي حولها، من جهة أخرى<sup>٦</sup>.

إذاً، يشكل التناصّ مفهوماً واسعاً، يتجاوز تداخل النصوص إلى انصهارها معاً، ونفي المركزية عن أيّ نص، ورفض الإعتراف بمؤلف واحد، لأنّ كل خصوصيات النصوص ذابت وتجمعت في النص الجديد<sup>٧</sup>، وأصبحت مقوماته الأساسية والجوهرية، التواصل والتفاعل والتوالد<sup>٨</sup>. فالتناصّ أمرٌ حتمي لا فكاك منه، لأنّ الإنسان مهما تحرر من عالمه، فإنّه سيبقى أسيراً لهذا العالم، بظروفه الزمانية والمكانية، لأنّ هذا التناصّ

<sup>١</sup> - ابن منظور: لسان العرب ص ١٥/٣٢٧.

<sup>٢</sup> - مفتاح: تحليل الخطاب الشعري ص ١٢١.

<sup>٣</sup> - انظر: سلطان: التضمين والتناص ص ١٣-١٥.

<sup>٤</sup> - انظر: المغييض: التناص في معارضات البارودي ص ٨٥.

<sup>٥</sup> - انظر: الدهون: التناص في شعر المعري ص ٣٢.

<sup>٦</sup> - انظر: سلطان: التضمين والتناص ص ٧١، ٧٠-٧٣.

<sup>٧</sup> - انظر: المصدر نفسه ص ٧١-٧٠.

<sup>٨</sup> - انظر: مفتاح: تحليل الخطاب الشعري ص ١١٩-١٢٠.

"بمثابة الهواء والماء والزمان والمكان للإنسان"<sup>١</sup>، ومهما كتب هذا الإنسان، فسيفي  
"معيداً لإنتاج سابق في حدود من الحرية"<sup>٢</sup>.

وعليه، فمن الصعب الإدعاء أنّ نصاً ما هو ذات مستقلة، لأنه في الحقيقة سلسلة  
من العلاقات مع نصوص أخرى، متداخل معها بوعي أو بلا وعي، وهذا وحده يفرض  
نمطاً خاصاً في قراءة هذه النصوص، فلا بد أن يتعامل معه على أنه "(بنية) مفتوحة  
على الماضي مثلما أنه وجود حاضر، ويتحرك نحو المستقبل"<sup>٣</sup>.

كما يؤكد (عبد الله الغدامي) على السمة الوراثة للنصوص، "فهي تحمل  
(جينات) أسلافها، كما أنها تتمخض عن (بذور) لأجيال نصوصية تتولد عنها... وكل  
حضور ذهني يحدث عندنا ونحن نقرأ نصاً ما، فإنّ هذا التداعي هو نتاج تلك السمة  
الوراثية"<sup>٤</sup>.

قد يفهم مما سبق أنّ هناك إلغاء للنصوص، وسلباً لخصوصيتها، وأنّ المبدع فاقده  
للإرادة، بالطبع هذا بعيدٌ عن الصواب، لأنّ المبدع يملك الكلمة، "والسر يكمن في طاقة  
الكلمة وقدرتها على الإنعتاق... وما دامت الكلمة تقبل الإنعتاق، فإنّ المبدع هو المعتق  
الأول لها، ويليه القارئ في مواصلة المهمة"<sup>٥</sup>.

إنّ هذا التداخل والامتزاج الثقافي والفكري بين النصوص سيصعب عملية متابعة  
التنّاصّ وضبطها، أو حتى التقنين لها، وستبقى "ثقافة المتلقي وسعة معرفته وقدرته على  
الترجيح"<sup>٦</sup>، هي الطريقة الأسلم لمتابعة هذا التنّاصّ. وقد يخفى هذا التنّاصّ، وهذا الخفاء  
لا يعني انعدام التشابك، بل إنّ هناك "وحدة داخلية لا تدركها إلا العقول الموهوبة"<sup>٧</sup>.

وإذا كان انتفاء التنّاصّ والتداخل عن النصوص سينفي عنها قدرة تأثيرية هائلة،  
حيث يبدأ النص وينتهي في حدود ضيقة، فإنّ السبب -أحياناً- قد لا يكون عقم النص، إنّما  
هو عجز وعقم قارئ النص<sup>٨</sup>.

<sup>١</sup> - انظر: مفتاح: تحليل الخطاب الشعري ص ١٢٥.

<sup>٢</sup> - انظر: المصدر نفسه ص ١٢٤.

<sup>٣</sup> - الغدامي: ثقافة الأسئلة ص ١١٣.

<sup>٤</sup> - انظر: المصدر نفسه ص ١١٣.

<sup>٥</sup> - الغدامي: الخطبة والتفكير ص ٢٩١-٢٩٢.

<sup>٦</sup> - مفتاح: تحليل الخطاب الشعري ص ١٣١.

<sup>٧</sup> - الغدامي: ثقافة الأسئلة ص ١١٩.

<sup>٨</sup> - انظر: المصدر نفسه ص ١١٢.

من البديهي أن يأتي التناص في المضمون، لكن وبما أنه لا مضمون خارج الشكل فقد يأتي التناص من خلاله لأن "الشكل هو المتحكم في المتناس والموجه إليه، وهو هادي المتلقي لتحديد النوع الأدبي لإدراك التناص، وفهم العمل الأدبي تبعاً لذلك"<sup>١</sup>. أما أنواع التناص، فهناك التناص المباشر، ويسمى بتسميات متعددة، مثل: التناص الواعي، التناص الشعوري، أو تناص التجلي، وكلها تعني عملية واعية تقوم بامتصاص نصوص متداخلة وتحويلها، وتوظيف النص الأصلي دون مواربة أو تمويه أو تحريف أو عكس. والنوع الآخر للتناص هو التناص غير المباشر، ويسمى أيضاً تناص الخفاء، أو تناص اللاوعي أو اللاشعوري، وهو تناص لا يكشف النص الغائب مباشرة إنما يلح له إلماحاً<sup>٢</sup>.

وتقسم (جوليا كريستيفا) أنماط التناص إلى أنماط ثلاثة:

أ- النفي الكلي: وفيه يكون المقطع الدخيل منفيًا كلياً، ومعنى النص المرجعي مقلوباً.

ب- النص المتوازي: حيث يظل المعنى المنطقي للمقطعين هو نفسه.

ج- النفي الجزئي: حيث يكون جزء واحد فقط من النص المرجعي منفيًا<sup>٣</sup>.

أما كفاءات التناص؛ فقد تقتصر هذه الكفاءة على (المعارضة) وتعني: "أن عملاً أدبياً أو فنياً يحاكي فيه مؤلفه كفاءة كتابة (معلم) فيه أو أسلوبه ليقتردي بهما"<sup>٤</sup>. وهناك المعارضة الساخرة، وهي تقليد هزلي ينقلب فيه الخطاب الجدّي هزلياً، أو الهزلي جدّيّاً. أما الكفاءة الأخيرة للتناص فهي (السرقَة) وتعني النقل والاقتراض والمحاكاة<sup>٥</sup>.

ولنستمع إلى واحد من كبار نقادنا العرب القدماء، وهو يتحدث عن التضمين: "والطريق الثاني الذي اقتباس المعاني منه بسبب زائد على الخيال هو: ما أستند فيه بحث الفكرة إلى كلام جرى في نظم أو نثر أو تاريخ أو حديث أو مثل، فيبحث الخاطر فيما يستند إليه من ذلك على الظفر بما يسوغ له معه إيراد ذلك الكلام، أو بعضه بنوع من التعرض و التغيير أو التضمين، فيحصل على ذلك أو يضمّنه أو يدمج الإشارة إليه أو يورد معناه في عبارة أخرى على جهة القلب أو نقل إلى مكان أحق به من المكان الذي

<sup>١</sup> - مفتاح: تحليل الخطاب الشعري ص ١٢٩-١٣٠.

<sup>٢</sup> - انظر: الدهون: التناص في شعر المعري ص ٣٣.

<sup>٣</sup> - انظر: كريستيفا: علم النص ص ٧٨-٧٩.

<sup>٤</sup> - مفتاح: تحليل الخطاب الشعري ص ١٢١.

<sup>٥</sup> - انظر: المصدر نفسه ص ١٢١.

هو فيه، ليزيد فائدة فيه، فيتممه أو يتم به أو يحسن العبارة خاصة، أو يصير المنثور منظوماً، أو المنظوم منثوراً خاصة"<sup>١</sup>. (فالقرطاجني) ينظر إلى التناص على أنه فائدة مكتسبة للنص الجديد. كما أن فائدة التناص تكون في الإختزال والإيجاز؛ "والتضمن كله إيجاز أستغني به عن التفصيل إذ كان مما يدل دلالة الأخبار في كلام الناس"<sup>٢</sup>.

إذاً، فالتناص ذو أهمية كبرى في النصوص، ابتداء من لحظة إنتاجها، فبالتناص تتم صناعة النص الجديد عبر امتصاص النصوص الأخرى ودمجها، داخل حركة معقدة من الإثبات والنفي المتزامنين لتلك النصوص<sup>٣</sup>. ولا يقف الأمر عند إنتاج النصوص إنما يتعداه إلى التأثير الكبير لهذا التناص في التشكيل الجمالي والفني للنص الجديد، وبلورة الرؤية التي خلقت هذا النص، بعد أن هضمت معارف وحمولات ثقافية كثيرة، وكونت كياناً لغوياً جديداً<sup>٤</sup>.

فإذا استثمر المبدع التناص استثماراً حقيقياً، فإنه حتماً سيكشف لنا عن مخزونه الثقافي، واتساع آفاقه المعرفية، فضلاً عن التأثير الذي سيحضى به النص الجديد، وانفتاحه على قراءات وإحياءات كبيرة جداً<sup>٥</sup>. وهذا الانفتاح سيحتاج إلى مستقبل واع، مستوعب لمرامي النص، والنصوص السابقة له، مما يضيف للنص أهمية تواصلية بين المبدع وقارئه<sup>٦</sup>.

أمّا التناص عند ابن حزم فهو مندرج في إطار فلسفة منفعيّة، ستظهر على شكل مرونة كبيرة يبدئها ابن حزم تجاه مخزونه الثقافي، رغم ما اتصف به من ثبات على مواقفه، لقد انطلق ابن حزم من مبدأ أن الحكمة ضالة المؤمن أتى وجدها فهو أحقّ بها، لذا سنراه يجوب آفاقاً معرفية، ويمتاح من مخزونات ثقافية هائلة، ليطعم بها نصوصه. إن أكثر ما أطلق يدي ابن حزم وفكره هو ظاهريته، والنمطية الفكرية التي كان ينتهجها، فالظاهرية التي التزم بها، هي نفسها مسكونة بهاجس البحث وعدم التوقع تحت قوالب فكرية جاهزة. فلا غرابة أن يمدّ ابن حزم يده إلى مخزونه الفكري الهائل، ويستفيد منه، بل إنه لم يمانع أن يسرّح فكره في تركّات الفلاسفة والملحدين وغيرهم ممن لا يوافقهم.

<sup>١</sup> - القرطاجني: منهاج البلغاء ص ٣٩.  
<sup>٢</sup> - الرماني: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ١٠٣.  
<sup>٣</sup> - انظر: كريستيفا : علم النص ص ٧٩.  
<sup>٤</sup> - انظر: الدهون: التناص في شعر المعري ص ٣١.  
<sup>٥</sup> - انظر: المصدر نفسه ص ٣٣.  
<sup>٦</sup> - انظر: مفتاح : تحليل الخطاب الشعري ص ١٣٤-١٣٥.



مهمتنا التالية هي رصد التناصّ، بأشكاله الواعية واللاواعية، وإرجاع هذه التناصّات إلى مصادرها، والوقوف على دلالة هذه التناصّات النصّية وأثرها على مناظرات ابن حزم. ولنبدأ أولاً بالتناصّ الديني، كونه المهيمن على غيره، ثمّ التناصّات الأدبية بأشكالها المتعددة ثمّ التناصّ التاريخي.

## ١ - التناصّ الديني في مناظرات ابن حزم

سننطلق هنا إلى التناصّ القرآني، وإلى التناصّ مع الحديث النبوي الشريف، وإلى التناصّ مع الكتب السماوية، سواء كان هذا التناصّ مباشراً أو غير مباشر.

### التناصّ القرآني المباشر

ربما يكون فضول من القول أن نخبر عن تناصّ ابن حزم مع النصّ الديني القرآني، سيّما أن صاحبنا فقيه كبير ومجدّد أصوليّ، وهذا سيجعل مهمة حصر التناصّات القرآنية صعباً للغاية، لذا سنحاول وضع أيدينا على الإستثمار النصّي للقرآن الكريم، وكيفية توظيفه وتوجيهه خدمةً للمناظرة. مع الأخذ بالإعتبار أن النصّ القرآني نص غير عادي، يمتلك القداسة والفصاحة، مما يجعله استثماراً رابحاً لمن يعتمد عليه، فهو حجة لا تُقهر، ودليل لا يُرد. ولنأتي الآن إلى نماذج من هذا التناصّ القرآني المباشر، في مناظرات ابن حزم .

(١) "ولكنّها [يعني الروح] معدّبة في غير نار جهنم، قال الله تعالى: (وَلَنُذِيقَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) [السجدة: ٢١]. وقال تعالى في آل فرعون: (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) [غافر: ٤٦]".<sup>١</sup>

جاء هذا التناصّ القرآني المباشر في معرض ردّ ابن حزم على منكري عذاب القبر، ويَنمّ هذا التناصّ عن ذكاء في استخدام الأدلة، فهو لاء الخصوم (قرآنيون)، لا يأخذون إلا من القرآن وحده، ويرفضون الإستدلال بالسنة النبوية، مما يجعل هذا التناصّ في صورته السطحية الأولية هو الطريقة المثلى لمحاصرة الخصم، بالدليل المشترك، الذي يقبله ويعتدّ به.

<sup>١</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٢١٩.

(٢) "وأما قول القائل إنّ النفس والروح شيئان، فخطأ وقول بلا برهان، وقد قال الله تعالى: (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [البقرة: ١١١]"<sup>١</sup>. لقد أحال ابن حزم خصمه إلى النص الأصلي (القرآن الكريم)، تأسيساً لقاعدة جديدة، وهي وجوب الاستدلال والبرهنة على كل الأشياء، مما يُكسب أدلة ابن حزم بُعداً مقدساً لتأسيسها على النص القرآني.

(٣) "ولا يلزم الشرائع إلا باليقين، قال تعالى: (إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) [يونس: ٣٦]"<sup>٢</sup>. الأمر هنا مشابه للنموذج السابق، فعملية الإتكاء المقصود على النص القرآني أكسبت منهج ابن حزم البحثي الرافض للدلالة غير اليقينية بُعداً دينياً جديداً، من خلال هذا التفاعل النصي، والذي من شأنه الإسهام في حسم كثير من المناظرات لصالح ابن حزم.

يردّ ابن حزم على القائلين بوجوب وفاء الأسير الهارب من سجنه، بالعهد التي قطعها لأسريه، فيقول: "لا يحلّ له [الأسير] أن يبقى عندهم إن قدر على الخلاص أو يعطيهم شيئاً إن انطلق قبل أن يأخذه منه، وإثما قال تعالى (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ) [النحل: ٩١] وهذا ليس عهد الله"<sup>٣</sup>.

يظهر هذا النموذج انفتاح النص القرآني على قراءات ووجهات نظر عديدة، فالآية ذاتها هي عينها ما استشهد بها الخصوم، وهنا اقتصر دور ابن حزم على توجيه الآية الكريمة ناحية الفهم الذي يرتضيه، وهذه النقطة تحديداً- تؤكد أنّ النص القرآني لن يكون في صالح أحد المتناظرين بدلالته الأولى، دون العمل على توجيهه، ومع ذلك، يبقى النص القرآني أكثر انضباطاً مما عده من النصوص، وتنخفض فيه القراءات المتعددة إلى أقل مستوى لها، مقارنة مع غيره من المراجع.

(٤) "وأما سؤالك عن المُصِرِّ، فإنّ الله تعالى يقول: (وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) [آل عمران: ١٣٥]"<sup>٤</sup>. يظهر في إجابة ابن حزم مدى الإنصهار التناصّي، فاكتفاء ابن حزم بالآية ردّاً على الخصم سيوفر عليه جهداً إقناعياً، وسيُبقي المواجهة محصورة بين الخصم مع النص الأصلي (القرآن).

<sup>١</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٢٢١.

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه ص ٣/٢٢٥.

<sup>٣</sup> - المصدر نفسه ص ٣/٢٢٦.

<sup>٤</sup> - المصدر نفسه ص ٣/٢٢٦.

(٥) "ومعاذ الله أن يُسلط شيطاناً يتكلم على لسان نبيه -عليه السلام- وهو تعالى يقول: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) [النجم: ٣-٤]".<sup>١</sup> بهذا يردّ ابن حزم على المدّعين بأنّ الرسول -صلى الله عليه وسلم- قد سحر وتكلم الجن على لسانه. إنّ تناص ابن حزم المباشر مع الآيات الكريمة ليس من باب الترف، إنّما هو حاجة حقيقية، أمام خصوم لا يمكن أن يتقبلوا كلام ابن حزم مجرداً. كما سيعطي هذا التناصّ لوجهة نظر ابن حزم صفة الديمومة والقطعية، لاستنادها على النص القرآني بكل ما يملكه من تأثير وثبوتية.

(٦) "وأما سؤالك عن تفاضل ساحة الجنة، وأنها سبع جنات، فقد نصّ تعالى على أنّ بعضها فوق بعض بقوله تعالى: (وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) [الإسراء: ٢١]".<sup>٢</sup> يظهر التناصّ هنا حاملاً أبعاداً معرفية مباشرة، وممثلاً وسيلة أسرع لنقل المعرفة، حيث أنّ الموضوع الذي سئل عنه ابن حزم موضوع غيبي، لا يمكن الاعتماد في الإجابة عنه على أيّ شيء آخر سوى النقل.

(٧) "إنّ الحدود كفارات حاشا الفساد في الأرض فإنه باق؛ قال الله تعالى: (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ) [المائدة: ٣٣]".<sup>٣</sup>

يرى ابن حزم أنّ الحدود المقامة في الدنيا على المذنبين تُسقط عنهم العذاب الأخروي، سوى حدود الحرابة، وقد أجاب ابن حزم برأيه هذا حين سئل عن الأمر، واستحضر النص القرآني، لمنح رأيه إقناعية أكثر. كما أسهم هذا التناصّ في تعدد الأصوات داخل النص تبعاً لتعدد مصادرها، وهذا بالطبع سيمنح النص حيوية أكثر وجموداً أقل.

إنّ التناصّ القرآني المباشر هائل الحضور عند ابن حزم، وهناك علاقة حميمة بينه وبين النص القرآني، ولديه قدرة كبيرة على استحضار هذا النص بما يملكه من زخم ودلالة، وقدرة أكبر على توظيفه بمهارة وذكاء.

<sup>١</sup> - ابن حزم : رسائل ابن حزم ص ٣/٢٢٨.

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه ص ٣/٢٢٩.

<sup>٣</sup> - المصدر نفسه ص ٣/٢٢٣.

## التَّنَاصُّ القرآني غير المباشر

لا شكَّ أنَّ للحضور القرآني النصِّي فوائد جمَّة، غير أنَّ الحضور المتواري سيكون أكثر حيوية وإنتاجاً في مواضع أخرى، سيَّما أنَّ هناك خصوما لابن حزم ينفرون من المواجهة المباشرة مع النص القرآني. كما أنَّ تخفيف الزخم الحضورى للنص الأصلي (القرآن) سيمنح النصَّ الجديد حرية أكبر، ويمنح مبدع هذا النص مساحةً أوسع للفهم والاستنباط، ويخفف عليه من ثقل النص الأصلي.

في التَّنَاصِّ غير المباشر سنرى ابن حزم أكثر حيوية ونشاطاً، خاصة عندما يترك الأمر للاوعي، فتظهر قدرة فريدة على استغلال الموروث القرآني، حتى يصبح هذا الاستحضار اللاواعي عموداً فقرياً للنص الجديد. أمَّا على مستوى المتلقي، فإنَّ عملية تلاقي اللاوعي الخاص به مع لاوعي المرسل ستخلف تأثيراً أعمق، ونقاط التقاء أكثر، خاصة مع أولئك الذين لا يقلون تقديساً للنص القرآني عن ابن حزم. ومن أمثلة التَّنَاصِّ القرآني غير المباشر:

(١) "ولا ريب في أنَّه إذا أخذ بناصيته وقدميه ليهوي بهما في النَّار، نار جهنم، فإنَّه لا يُسأل عن ذنبه".<sup>١</sup> يتناص هذا مع قوله تعالى: (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ) (الرحمن: ٣٩).

يمثل هذا التَّنَاصُّ ثنائية الحق والباطل، والخير والشر، وهي ثنائية مسيطرة على ذهنية ابن حزم، فأصناف الحلول أو الأمور الوسط غير واردة في نظامه الفكري. لقد تَوَّأَمَ ابنُ حزم بين ما يريد قوله والحكم به على الخصوم مع ما هو حاضر في النص القرآني، فأدَّت هذه التوأمة إلى إنصهار الخطابين، واندماجهما بالكامل، وقد وظف ابن حزم هذا الاندماج دحراً لخصومه. وبطبيعة الحال فإنَّ هذا سيكون فوق ما يحتمله هؤلاء الخصوم، مما ولدَ ردة الفعل العنيفة منهم تجاه ابن حزم، وحاربوه حتى آخر نفْس.

(٢) "فهذا علم ما يُدرى منهم أحد يدري فيه كلمة فما فوقها".<sup>٢</sup> يتناص هذا مع قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا) (البقرة: ٢٦).

إنَّ التسلل المقصود للنص القرآني إلى نص ابن حزم لا يقتصر على التقارب اللفظي، بل إنَّ هناك تقارباً موقفياً، فالنص الأصلي يسمُّ الكفار بالجهل التام، وهذا تحديداً

<sup>١</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٥١.

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه ص ٣/٧٦.

ما أراده ابن حزم ليصف به خصومه، من خلال استدعاء اللفظة القرآنية المحورية (فما فوقها)، وهذا سيبعد النص الجديد عن إمكانية فهمه على أنه مجرد مبالغة وتهويل.

(٣) "وَأَمَّا الطَّامَةُ فَقَوْلُهُمْ..."<sup>١</sup>. يتماهى هذا النص مع الآية الكريمة: (فَإِذَا جَاءَتْ الطَّامَةُ الْكُبْرَى) (النازعات: ٣٤).

إنّ هذا التناصّ اللاوعي سيوفر جهداً كبيراً على ابن حزم، في عملية الإفهام والإقناع للمتلقي، فتحفيز الصورة المخزّنة في كيان المتلقي عن الطامة وأهوالها وشدائدها، سيُثار بمجرد الإلماح لهذه الصورة، وستحدث عملية تبادلية للصور، ستوفر لابن حزم مزيداً من الإقناع.

(٤) "ولو رجعوا إلى أنفسهم فنظروا هل رويوا ما يدينون به عن الصحابة والتابعين"<sup>٢</sup>. يتكىّ هذا النص على الآية الكريمة: (فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ) (الأنبياء: ٦٤).

إنّ البراعة في هذا الاستحضار للنص القرآني غير خافية، وهو ما أعطى لنص ابن حزم مزايا إقناعيّة وتشويقيّة وتهكميّة، فالنص القرآني بما يكتنزه من دلالات وإيحاءات سيولد حضوراً للموقف الأول، أي موقف إبراهيم -عليه السلام- في حوار مع قومه الضالين، إنّ ابن حزم يحاول من خلال هذا التناصّ تقمّص شخصية إبراهيم -عليه السلام- كما جاءت في النص القرآني، وتبعاً لذلك، سيكون المقابلين له مشابهيّن لقوم إبراهيم -عليه السلام-. إذاً فقد منح النصّ ابن حزم إيجابية مطلقة، وأعطى لخصومه -بالمقابل- السلبية المطلقة.

(٥) "وَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنَّهُمْ أَنْكَرُوا كُلَّ هَذَا وَقَدْ فَرَوْا عَنْهُ: فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير"<sup>٣</sup>. يتطابق هذا مع النص القرآني: (فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ) (تبارك: ١١).

هنا نشهد حرية لا محدودة في الإنتقال الزماني بين الدنيا والآخرة، فالنص الأصلي هو حوار الهيّ مع الكفار الذين انحرفوا عن المنهج القويم، ونتيجة الحوار محسومة دون أدنى شك، وهذه النتيجة عينها هي ما أرادها ابن حزم من تناصه، فالمتلقي سيستدعي

<sup>١</sup> - ابن حزم : رسائل ابن حزم ص ٣/٧٧.

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه ص ٣/٧٩.

<sup>٣</sup> - المصدر نفسه ص ٣/٨٥.

النص الأول، مع نتائجه المحسومة، وسيربطها مع الموقف الراهن، بشكل لا واعي، ممّا يجعل غلبة ابن حزم وتفوقه على خصومه أمراً قطعياً.

(٦) "... وإلى هذا ندعوهم وهم يدعوننا إلى ترك ما صحّ عنه عليه السلام".<sup>١</sup> يمكن أن يتقارب هذا النص مع الآية الكريمة: (وَيَا قَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ) (غافر: ٤١).

يعمل التناصّ، هنا، على ربط الحاضر بالماضي، من خلال استحضار النص القرآني المتضمن موقف الرجل الذي آمن سرّاً من آل فرعون، إنّ كلمات هذا الرجل حين يعاتب قومه سيُسقطها ابن حزم على حاله. لقد عمل ابن حزم على تقليص للمسافة بينه وبين نموذج مثالي مرتبط بالنص المتعالي، وهذا الإسترفاد سيشكل نبعاً لا ينضب من الدلالات، وسيعطي النص الجديد حيوية مفعمة، وتنوعاً أكثر في المشاهد، ممّا يولد قدرة إقناعية هائلة.

(٧) "... ولم يأمر بإعادة، وما كان ربك نسياً".<sup>٢</sup> يحاول هذا النص التقارب من الآية الكريمة: (وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا) (مريم: ٦٤).

يردّ ابن حزم بكلامه هذا على من أوجبوا قضاء الصلاة الفائتة، ومع تمسك ابن حزم بالدليل السلبي، أي أنّه ليس ثمة نص يوجب القضاء، فإنّ التناصّ شكّل دليلاً بحدّ ذاته، لكن على نطاق العموم، فالله تعالى لم يُفوّت شيئاً يريد أن نفعله دون أن يبلغنا به صراحة. إنّ مهارة ابن حزم تبدو في إدراج تناصه في التوقيت المناسب، وهذا أمر غير عسير على رجل تشرب تلك النصوص وهضمها، وتكوّنت لديه رؤية واضحة استطاعت كبح جماح الخصوم الرافضين الإنسياق لها، من خلال إتكائه على النص الإلهي.

(٨) "وإنّما هم كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً".<sup>٣</sup> يتطابق هذا مع النص القرآني: (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) (الفرقان: ٤٢). مع أنّه من الممكن أن يأتي هذا التناصّ مباشراً، لكنّ ابن حزم أرادته متحرراً من تموضعه الأصلي، لحاجة موقفيّة تقتضي تكييف النص بغير طبيعته الأولى،

<sup>١</sup> - ابن حزم : رسائل ابن حزم ص ٩٠-٩١/٣.

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه ص ١١١/٣.

<sup>٣</sup> - المصدر نفسه ص ١٢٢/٣.

والتي تشير إلى الكافرين دون غيرهم، وقد استفاد ابن حزم من الموقف الساخر للنص الأول، وأنتج من خلاله الدلالة ذاتها، بظروف أخرى غير الأولى.

كمياً، يشكل التناصّ القرآني غير المباشر، ظاهرة كبرى في نصوص ابن حزم، لذا سنكتفي بما سبق، مع التأكيد على أنه لا يمكن تصور نصوص ابن حزم خالية من هذا الاستحضار المقصود أو غير المقصود للنص القرآني، لأنّ هذا التناصّ يمنح ابن حزم ويمنح نصه الجديد ايجابية وتعالٍ، وقوة نفسية هائلة، ويمنحه -أيضاً- مساحة إقناعية إضافية.

بديهياً، لا يمكن لأيّ نصّ أن يظاهي النص القرآني، لكنّ من المؤكد أنّ البراعة البشرية ستظهر من خلال إعادة الصياغة، ومَوْضَعَة الألفاظ والمعاني داخل النص الجديد، والذي سيستفيد ويكسب انفتاحاً على قراءات عديدة، وتفجّراً في الدلالات والإيحاءات.

### التناصّ المباشر مع الحديث النبوي

ربّما يكون النص القرآني أكثر إتاحة، نظراً للاتفاق الغالب على نصوصه، وتداوله الواسع، مقارنة بنصوص الحديث الشريف التي يحتدم الخلاف حولها سداً ومتناً، لكنّه - الحديث - لن يختلف في الحجية والإقناعية كثيراً، سوى مع أولئك الخصوم الذين لا يؤمنون به أساساً كمصدر للتشريع. كما أنّ التناصّ مع الحديث النبوي الشريف يحتاج خبرة في علم الحديث وعلم الجرح والتعديل، وذلك لتمييز الحديث الضعيف من الصحيح، ومن ثمّ الإتكاء عليه، ولا يخفى أنّ ابن حزم ذو ثقافة حديثيّة متخصصة. فلنرى كيف كان استحضاره لما يملكه من نصوص حديثيّة؟ وكيف أسمّته في مناظراته؟

(١) "فقد نصحت لكم وأديت ما لزمني في ذلك، وبقي ما عليكم. فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم: (الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة. قالوا: لمن يا رسول الله قال: لله ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم" <sup>١</sup>.

لا يمثل هذا الإدراج للنص النبوي تناصّ تأليفيّاً، بقدر ما هو تداخل وإندغام وتأثير رئيسي في تفكير ابن حزم، فالنصيحة هي مكون أساسي من الدين، وهذا تحديداً جعل ابن

<sup>١</sup> - ابن حزم : رسائل ابن حزم ص ٣/١٦٧. وانظر الحديث: مسلم: صحيح مسلم، حديث رقم ٥٥ ص ٥٥.

حزم ينبري للدعوة إلى منهجه من منطلق النصيحة، فالتناصّ هنا كان على عدة مستويات أهمها المستوى الإيديولوجي لصاحبنا.

(٢) "وإنّما صحّ أنّ الأرواح تسرح في الجنّة ثمّ تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش"<sup>١</sup>.

في أحيان كثيرة يكون التناصّ الديني أمراً لا مفرّ منه، ففي عصر ابن حزم، حيث تحرّك الشريعة عجلة الحياة، بغض النظر عن مدى اقتراب أو ابتعاد فهم الشريعة آنذاك عن الصواب. وعليه، فإنّ مسائل وقضايا الشريعة لن تكون متداولة على مستوى نخبويّ، فالجميع بمن فيهم العامة تعنيهم تلك القضايا، لذا فإنّ الإستشهاد بالنصوص النبوية سيغدو حاجة إقناعيّة ملحّة، خاصة في مسائل الغيبيات، كالمسألة هذه، وهي حال الأرواح في الجنة.

(٣) "فإنّ اعترض معترض بالحديث الذي فيه أنّ رجلاً قتل مائة ثمّ تاب أدخله الله الجنة، فلا حجة له، لأنّ ذلك كان في الأمم الذين قبلنا، هكذا نص الحديث المذكور"<sup>٢</sup>.

يظهر التناصّ هنا بصورة مختلفة، فالنص النبوي يردّ على لسان الخصم مستشهداً به، لكننا إذا دققنا أكثر، فإنّنا نرى أنّ ابن حزم هو الذي افترض الإعتراض، وبالتالي هو الذي أيّده بالنص النبوي، وهذا يعد براعة في إيجاد قراءتين متوازيتين للنص النبوي نفسه، مما يمنح ابن حزم موضوعية، وانفتاحاً أكبر على الآخر.

(٤) "وأما سؤالك عن من حلف خوف السلطان بإكراه: هل عليه كفارة. فلا كفارة على المكره ولا يلزمه شيء لقول النبي عليه السلام: (عُفي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)"<sup>٣</sup>.

يسهل التناصّ على ابن حزم مهمّته، ويكفيه مؤنة أطالة الشرح والتعلّل، فالنص النبوي يشكل أرضيّة مشتركة بينه وبين كثير من مناظريه وسائليه، وبالتالي، فإنّ استحضار النص النبوي قد يكون في كثير من المواقف كافياً غاية الكفاية.

<sup>١</sup> - ابن حزم : رسائل ابن حزم ص ٣/٢٢٠. وانظر الحديث بطوله: أبو داود: سنن أبي داود حديث رقم ٢٥٢٠ ص ٢٨٦.

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه ص ٣/١٨٣. وانظر الحديث بطوله: ابن ماجه: سنن ابن ماجه حديث رقم ٢٦٢٢ ص ٢٨٥.

<sup>٣</sup> - المصدر نفسه ص ٣/٢٢٤. وانظر الحديث بمعناه: ابن ماجه: سنن ابن ماجه حديث رقم ٢٠٤٣ ص ٢٢١.



## التَّنَاصُّ غير المباشر مع الحديث النبوي

يعدّ الحديث النبوي بكمّهِ الكبير، مقارنة بالنص القرآني، وبتنوعه وتعدد مستويات قبوله - مكوناً أساسياً في خطاب ابن حزم، خاصة أنّ النص النبوي يتسم بمرونة وطوعية أكبر، في عملية تسرّبه إلى النصوص، لأنّه يحظى بقداسة أقلّ من ناحية تموضعه بين النصوص واندماجه بها، مقارنة مع النص القرآني.

(١) "فمن أراد الله تعالى به خيراً وفقه لطلب ما يقرب منه"<sup>١</sup>. هذا النص وليدٌ للنص النبوي: (من يُردِ الله به خيراً يفقهه في الدين...)<sup>٢</sup>.

إنّ ما يجمع بين ابن حزم ومعظم خصومه ثقافةً مشتركة، فخصومه المالكيون يقدّسون النص النبوي مثله تماماً، والخلاف منحصر في قراءة هذا النص وفهمه، وعليه، فإن سيطرة النص النبوي على نص ابن حزم ستمنح النص الجديد كثيراً من مزايا النص الأول. كما أنّ هذا التَّنَاصُّ المتعدد شكلياً وموضوعياً سيكشف عن ذكاء صاحبنا، في استثماره لنقاط القوة في نصوصه.

(٢) "... لأنّ مالكاً وغير مالك لو أنفق مثل أحد ذهباً لم يبلغ نصف مدّ شعير يتصدق به أقل الصحابة"<sup>٣</sup>. هذا النص منبثق عن النص النبوي: (لا تسبّوا أصحابي فلو أنّ أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدكم ولا نصيفه)<sup>٤</sup>.

إنّ الهجوم الكثيف الذي شنّه ابن حزم على تفاصيل المذاهب، ومذهب مالك على وجه الخصوص، لا يمكن أن يُفسّرَ إلا أنّه رفض كامل للمذهب، ومع انضباط كبير أبداه ابن حزم حيال التعرّض لأشخاص الأئمة الأربعة، والإمام مالك، على وجه التحديد، فإن ذلك لم يعفه عند أتباعهم من تهمة الحطّ من قيمتهم.

لقد وظّف ابن حزم التَّنَاصُّ كدرع يستطيع من خلاله التعرّض لمن شاء، ما دام أنّهم لم يحظوا بمكانة الصحابة الكرام، إنّ هذا التمرس خلف النص النبوي سيجعل من كلام ابن حزم ذا مصداقية معقولة عند خصومه.

(٣) "وأما قولك: حتى إذا بلغت إلى حد الحسبة والصبر، وأن كانت محنة، تناولت الأوكد فالأوكد، فحالة أريد ألا تتصورها ولا تتمثلها فإنّها مبخلة مجبنة"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٨٣.

<sup>٢</sup> - البخاري: الجامع المسند الصحيح حديث رقم ٧١ ص ٣٠.

<sup>٣</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٩٣.

<sup>٤</sup> - البخاري: الجامع المسند الصحيح، حديث رقم ٣٦٧٣ ص ٩٠٣.

<sup>٥</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٨٨.

يتنّاصّ هذا الكلام مع قوله عليه السلام: (إنّ الولد مبخله مجبنة)<sup>١</sup>. يتركز التّنّاصّ على تركيب مختزن في ذهن السامع، وبمجرد أن يستدعي ابن حزم هذا التركيب، فإنّ الصور سترتسم سريعاً في خيال المتلقي.

(٤) "صحّ أنّ صلة الرحم تزيد في العمر وتُنسأ الأجل"<sup>٢</sup>. من الواضح أنّ هذا النص يسترشد من الحديث النبوي: (من سرّه أن يُيسط له في رزقه وأن يُنسأ له في أثره فليصل رحمة)<sup>٣</sup>. وهذا الاسترفاد الحرفي سيثري قاموس ابن حزم اللغوي، ويجعله أكثر إنتاجاً وقبولاً عند الآخرين.

(٥) "فنظرنا في ذلك فوجدناه عليه السلام قد أدخل في الكبائر وبنص لفظه غير الذي ذكر في الحديث الذي ذكرنا آنفاً فمنها: قول الزور، وشهادة الزور، وعقوق الوالدين، والكذب عليه السلام، وتعريض المرء أبويه لسبّ بأن يُسب أباء الناس..."<sup>٤</sup>. ويستمر ابن حزم في تعداده للكبائر، بأسلوب سرديّ يتنّاص في غالب ألفاظه مع أحاديث نبوية شتى. وهذا الاستعراض هو فرصة لابن حزم لعرض مهاراته أمام خصومه، وإبهارهم بهذا الكمّ الهائل من المحفوظ، وبقدرته على تطويعه بكيفيات متعددة جداً.

### التّنّاصّ مع الكتب السماوية الأخرى

لقد أسهم التنوع الثقافي في شبه الجزيرة الأيبيرية في صقل فكر ابن حزم وغيره من علماء عصره ورؤيتهم، فقد شهدت هذه الجزيرة انفتاحاً حضارياً غير معهود، وتعدداً عرقياً ودينياً، أتاح الفرصة لابن حزم لمعايشة كثير من الأديان والثقافات والأفكار والمعتقدات.

فإذا كان النصارى في صدام حضاري مع الحضارة الإسلامية، ويخوضون حرباً معلنة ضدها، فإنّ اليهود تنكروا للأمان والاستقرار الذي مُنح لهم، بل وللإمتيازات التي حصلوا عليها، حتى بلغ بعضهم أعلى المراتب، وبعضهم استّوزر للحكام. وعليه، فقد أدرك ابن حزم خطرهم الداهم، واستشرف بحسّه المتقدم على أبناء عصره، واطلاعه

<sup>١</sup> - ابن ماجه: سنن ابن ماجه حديث رقم ٣٦٦٦ ص ٣٩٣.

<sup>٢</sup> - ابن حزم : رسائل ابن حزم ص ٣/٢٢٨.

<sup>٣</sup> - أبو داود: سنن أبي داود حديث رقم ١٦٩٣ ص ١٩٩.

<sup>٤</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٤٦.

العميق على كتبهم وتاريخهم أنهم لا أمان لهم مطلقاً، مما جعل ابن حزم يخوض معهم معركة شاملة؛ عقدية، ثقافية، سياسية.

وبطبيعة الحال، فإن ابن حزم سيستثمر خبرته المميزة بالتاريخ، وبالديانة اليهودية في مواجهة اليهود، ودون أن يتلقى الدعم الكافي من الحكام الذين لم يدركوا الخطر الحقيقي لهؤلاء اليهود، بل مكثوهم من المناصب، كما هو حال (ابن النغريله) الذي أصبح وزيراً. أما علماء عصر ابن حزم - فغالبيهم - حالت خصومتهم لابن حزم بينهم وبين نصرته في حربه مع اليهود.

وابن حزم يرفض الإعراف بالتوراة أنها نصٌ مقدس، لأنها محرقة مزيفة، لكنه ومن منطلق الواقعية والعقلانية استخدم التوراة، وتناص معها بشكل مباشر أو غير مباشر، ووجه انتقاده إلى التوراة شكلاً ومضموناً، أي أنه أثبت تحريفها تاريخياً، وأثبت تناقضها الداخلي، مما يجعل من المستحيل نسبتها إلى الله تعالى.

(١) يقول ابن حزم: "في هذيانهم المخترع وزورهم المفتعل الذي يسمونه (التوراة) إذ يقولون إن الله تعالى خلق الخلق في ستة أيام واستراح في اليوم السابع وهل تكون الراحة إلا لتعب؟".<sup>١</sup> ينبني هذا النص على نص توراتي: "(١) فأكملت السماوات والأرض وكل جندها (٢) وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل (٣)". (سفر التكوين ٢: ١-٣).

يمثل هذا التناص هجوماً معاكساً شنه ابن حزم على خصمه اليهودي (ابن النغريله) بعد أن قد شبهاته حول القرآن الكريم، وانطلق بعدها يأتيه بنصوص من التوراة تحمل فضائح ومخالفات عظيمة.

رغم تصريح ابن حزم أنه يرفض الإعراف بالتوراة المحرقة، لكنه يجد نفسه مرغماً على استخدامها، لأنها المنفذ الوحيد إلى الخصم، ومن خلالها يمكنه النفاذ إلى أدلة أخرى، كما فعل هنا، حيث استخدم الحجة اللغوية لبيان الغلط، فالراحة المزعومة لله تعالى سيسبقها (تعب)، وفي هذا نسبة غير مقبولة لإله عظيم.

(٢) "في توراتهم في السفر الخامس إذ يقول لهم تعالى: (ستأتيكم وسيأتي عليكم هذه اللعنة التي أصف لكم فتكونون ملعونين في مدائنكم وفدادينكم وتلعن أجدادكم وبقاياكم ويكون نسلكم ملعوناً... ومن كانت فيكم رخصة البنان التي لا تقوى على المشي من

<sup>١</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٤٨.

رخوصتها تحسد زوجها على أكل لحوم أولادها والسلى الذي يخرج من فرجها إذ لا تجد مطعماً سواه<sup>١</sup>. تتناص هذه الأقوال مع التوراة: "(١٥) ولكن إن لم تسمع لصوت الرب إلهك لتحرص أن تعمل بجميع وصاياه وفرائضه التي أنا أوصيك بها اليوم، تأتي عليك جميع هذه اللعنات وتتركك (١٦) ملعوناً تكون في المدينة و ملعوناً تكون في الحقل (١٧) ملعونة تكون سلّتك ومعجنتك (١٨) ملعونة تكون ثمرة بطنك وثمره أرضك، نتاج بقرك وإنات غنمك (١٩) ملعوناً تكون في دخولك، و ملعوناً تكون في خروجك". (التثنية ٢٨: ١٥-١٩).

في هذا التناص شبه الحرفي، يوقر ابن حزم على نفسه مؤنة مهاجمة اليهود ولعنهم، فالنص المقتبس يؤدي هذا الغرض على أكمل وجه، مع الحفاظ على أكبر حياد لابن حزم، الذي اقتصر دوره على مجرد النقل من توراتهم.

(٣) "أما قرأ في هذيانهم الذي يسمونه (توراة) امتنان الله تعالى في صفة الأرض المقدسة بأنها لا تسقى من النيل، كما تسقى أرض مصر لكن من ماء السماء"<sup>٢</sup>. يتناص هذا القول مع نص التوراة الآتي: "(٩) ولكي تطيلوا الأيام على الأرض التي أقسم الرب لأبائكم أن يعطيها لهم ولنسلهم، أرض تفيض لبناً وعسلاً (١٠) لأن الأرض التي أنت داخل إليها لكي تمتلكها ليست مثل أرض مصر التي خرجت منها، حيث كنت تزرع زرعك وتسقيه برجلك كبستان بقول (١١) بل الأرض التي أنتم عابرون إليها لكي تمتلكوها هي أرض جبال وبقاع، من مطر السماء تشرب ماءً". (التثنية ١١: ٩-١١).

جاء هذا كرد من ابن حزم على ابن النغريه، الذي يرفض أن يكون الماء سبباً لكل الحياة، كما يشير القرآن الكريم، وبما أن ابن حزم مناظر خبير فلن يجعل كل استدلالاته قرآنية مثلاً، فالخصم يرفضه في الأساس، وعليه، فإن التناص الذي جاء به ابن حزم سيُخرج خصمه، الذي سيجد نفسه مخالفاً ومناقضاً للتوراة نفسها التي من المفترض أنه يؤمن بها.

(٤) "وفي السفر الخامس أيضاً أن موسى عليه السلام قال لهم: إن السيد الإلهم الذي هو نار آكلة"<sup>٣</sup>. يرجع هذا النص إلى نص التوراة القائل: "(٣) فاعلم أن الرب إلهك هو

<sup>١</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٦٨-٦٩/٣.

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه ص ٥٦/٣.

<sup>٣</sup> - المصدر نفسه ص ٦٦/٣.

العابر أمامك ناراً آكلة. هو يبيدهم ويذلهم أمامك، فتطردهم وتهلكهم سريعاً كلما كلمك الرب". (التثنية ٩: ٣).

يُظهر هذا التناص اهتمام ابن حزم بأدق تفاصيل التوراة، ورغم أن في هذه التوراة كمّاً هائلاً من المغالطات الشنيعة التي سيضيق صدر ابن حزم بها، غير أن ميزة الصبر والأناة والهجوم على ثغرات حساسة، والتركيز على المسائل التي لا يمكن لخصومه اليهود تأويلها أو تكيفها، جعلته رائداً في مجال نقد التوراة. وقد أكسبته خبرته العملية في نقاش اليهود معرفة مواطن الضعف في التوراة، والتي سيحار اليهود أمام انتقاده إياها.

(٥) "ومن عجائبهم أنهم يلتزمون أكل الفطير في مرور الوقت المذكور في كل عام ولا يلتزمون أكل الخروف على ما ذكرنا، وهم يقرّون في كتابهم أنهم مأمورون بذلك كله".<sup>١</sup> يتناص هذا مع التوراة: "(١٤) ثلاث مرات تعيّد لي في السنة (١٥) تحفظ عيد الفطير، تأكل فطيراً سبعة أيام كما أمرتك في وقت شهر أبيب...". (الخروج ٢٣: ١٤ - ١٥) ويتناص -أيضاً- مع النص التوراة الآتي: "(١٢) وتعملون يوم ترددكم الحزمة خروفاً صحيحاً حولياً محرقة للرب (١٣) وتقدمته عشرين من دقيق ملتوت بزيت، وقوداً للرب رائحة سرور، وسكينة ربه إلهين من خمر. (١٤) وخبزاً وفريكاً وسويقاً لا تأكلوا إلى هذا اليوم عينه، إلى أن تأتوا بقربان إلهكم، فريضة دهرية في أجيالكم في جميع مساكنكم". (الأوابين ٢٣: ١٢-١٤).

لا يقتصر هذا التناص على اختزال نص توراتي وحسب، إنّما يكشف معرفة دقيقة عند ابن حزم بطقوس اليهود وعباداتهم، بل إنّّه يوجّه نقده لهم من زاوية عجيبة جداً، يُبرز من خلالها تناقض اليهود ومخالفتهم لنص التوراة في بعض الطقوس. إنّ هذا التضيق للخراف على الخصم لا يحسنه الكثيرون ممن تجادلوا مع اليهود. في الحقيقة، إنّ ابن حزم لا يريد أن ينطلق في جداله مع هؤلاء من منطلق النّدية، وأن يعطيهم امتياز حمل كتاب مقدس يجادلون عنه، إنّّه يريد أن يسلبهم ذلك، ويؤكد للجميع أنهم لا يحترمون كتابهم المقدس، على علاته ووهنه.

(٦) "فإنّ السفر الأول من كتابهم ذلك المسمى (توراة): أن يهوذا زنى بامرأة ولده ورشاهها على ذلك جدياً من الغنم، ورهنها بالوفاء بذلك عصاه وزناره وخاتمه".<sup>٢</sup> أساس

<sup>١</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٦١.

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه ص ٣/٥٧.

هذا النص في التوراة: "(١٥) فنظرها يهوذا وحسبها زانية، لأنها كانت قد غطت وجهها. (١٦) فمال إليها على الطريق وقال: (هاتي أدخل عليك). لأنه لم يعلم أنها كنته. فقالت: (وهل تعطيني لكي تدخل عليّ). (١٧) فقال: (إني أرسل جدي معزى من الغنم). فقالت: (وهل تعطيني رهناً حتى ترسله؟) فقال: (ما الرهن الذي أعطيك؟). فقالت: (خاتمك وعصابتك وعصاك الذي في يدك) فأعطاها ودخل عليها، فحبلت منه). (التكوين ٣٨: ١٥-١٨).

إنّ تناص ابن حزم مع نصوص معينة في التوراة يُعدّ اختياراً ذكياً للغاية، فهذا النص -مثلاً- يزيد على ما سبقه من نصوص بأبعاده المرفوضة عند عامة الديانات والثقافات. وبالتالي، سيحسم ابن حزم المناظرة لصالحه بمثل هذه التناصّات.

(٧) "وفي الذي يسمونه (الزبور): احذر ربك الذي قوته كقوة الجريش [الرجل النافذ] فهذا وشبهه هو الحمق والتناقض وتوليد زنديق سخر منهم وأفسد دينهم".<sup>١</sup> يتقارب هذا النص مع النص التوراتي الآتي: "(١٣) اللهم، في القدس طريقك. أيّ إله عظيم مثل الله؟ (١٤) أنت الإله الصانع العجائب. عرّفت بين الشعوب قوتك. (١٥) فككت بذراعك شعبك بني يعقوب ويوسف". (المزمور: ٧٧: ١٣-١٥).

إنّ مثل هذه التناصّات تكشف ثقافة ومعرفة واسعة لدى ابن حزم بالديانة اليهودية، وقد أعطاه هذا تفوقاً كبيراً في مناظرته، وأستطاع الولوج إلى ثغرات هامة في تورا اليهود، ففي النص الذي بين أيدينا يكشف استهزاء اليهود بالذات الإلهية، ومحاولة كبرائهم المتعمدة لذلك.

(٨) "ولو أنّ هذا الجاهل الأنوك تدبر باطلهم المبتدع وهُجرهم الموضع الذي يسمونه (توراة) إذ يقول: إنّ موسى عليه السلام راجع ربه إذ أراد إرساله وقال: من أنا حتى أمضي إلى فرعون، أرسل من تريد أن ترسل. وأغضب ربه تعالى بذلك".<sup>٢</sup> يُناص هذا المتن التوراتي: "(١١) فقال موسى لله: (من أنا حتى أذهب إلى فرعون، وحتى أخرج بني إسرائيل من مصر؟". (الخروج ٣: ١١).

<sup>١</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٦٦.  
<sup>٢</sup> - المصدر نفسه ص ٣/٥٤.

يتشابه هذا النص مع النص الذي سبقه، وذلك أن ابن حزم يحاول إظهار بشاعات اليهود واستخفافهم بأنبيائهم، وإظهارهم على شكل عصاة مخالفين لأمر الله تعالى، عديمي الاحترام لأنبيائهم.

(٩) "وأنَّ يعقوب عليه السلام صار ع ربه ليلة بتمامها وهو لا يعرف من هو، فلمَّا انسلخ الصباح عرف أنَّه الله - تعالى الله عن هذا الحُـمق من الكفر علواً كبيراً- قالوا: فلمَّا عرفه أمسكه فقال له ربه: أطلقني، فقال له يعقوب: لا أطلقك حتى تبارك عليّ، فقال له ربه: كيف لا أبارك عليك وأنت كنت قوياً على الله فكيف على الناس! ثمَّ مسَّ مأبضه، فخرج يعقوب من وقته. فكذلك لا يأكل بنو إسرائيل من عروق الفخذ لأنَّ الله تعالى مسَّه".<sup>١</sup>

تتناصّ هذه الأقوال مع ما جاء في التوراة: "(٢٤) فبقي يعقوب وحده، وصار عه إنسان حتى طلوع الفجر (٢٥) ولمّا رأى أنَّه لا يقدر عليه، ضرب حُقَّ فخذيه، فأخلع حُقَّ فخذ يعقوب في مصار عته معه (٢٦) وقال: (أطلقني، لأنه قد طلع الفجر) فقال: (لا أطلقك إن لم تباركني)... (٣٢) لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النّسا الذي على حُقَّ الفخذ إلى هذا اليوم، لأنّه ضرب حُقَّ فخذ يعقوب عليه السلام على عرق النّسا". (التكوين ٣٢: ٢٤-٢٦، ٣٢). ومثّل هذه التعاليم تكثّر في (التلمود) والذي اطلع عليه ابن حزم، حيث يقول: "وقالوا في كتاب لهم من (التلمود) وهو فقههم يسمى (سادر ناشيم)"<sup>٢</sup>. فإذا ما رجعنا إلى التلمود وجدنا فيه: "يسري [حكم تحريم أكل] عرق النّسا... مع الذبائح الدنيوية (العادية) أو المقدسة، ويسري على البهيمة والحيوان البري، وفي الفخذين الأيمن والأيسر، ولا يسري على الطائر، لأنّه ليس له حُقَّ"<sup>٣</sup>.

إنّ هذا الحشد والتناصّ المتعدد مع مرجعيات اليهود وكتب تعاليمهم منح ابن حزم مزيداً من الموضوعية والحجّية، وأظهر مدى تخصصيّته في المجال الذي يحاور به.

<sup>١</sup> - ابن حزم : رسائل ابن حزم ص ٥٤-٥٥ / ٣.

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه ص ٦٤ / ٣.

<sup>٣</sup> - عبد المعبود: قداشيم المقدسات ص ١٨٤.

## ٢- التناصّ مع الشخصيات في مناظرات ابن حزم

إنّ الإنسان بطبعه ميّال إلى التقليد وإتباع النماذج البشرية المُميزة، ولعلّ تقليد الآخرين أكثر سهولة من إتباع مبادئ وآراء ليس لها تطبيق على أرض الواقع. فمفهوم القدوة -رغم أنّ ابن حزم يرفضه في عملية التعبد- إلاّ أنّه أثمره خير استثمار حينما كان يربط العقائد والمذاهب بمؤسسيها، وكان يجد في ذلك منافذ للطعن عليها، والتقليل من شأنها، لأنّ ابن حزم مدرك تماماً للارتباط الوثيق بين هذه المبادئ وأصحابها من جهة، وبين هؤلاء الأشخاص وأتباعهم من جهة أخرى.

سنحاول في ايجاز النظر في تناصّ ابن حزم مع الشخصيات، وهل كانت عنده بنمط واحد؟ وكيف وجّه هذا التناصّ؟ وكيف استثمره؟

(١) "نسأل هذا الجاهل الذي أتى بهذه الطامة عن كل ما يدينون ما خالف فيه مالك سائر العلماء".<sup>١</sup>

لا يمكن القول إنّ مالكا هو خصم ابن حزم الأكبر، لما كان يبيده من احترام أو تحفظ كبير حياله، وما نستطيع زعمه أنّ أتباع مالك -على كثرتهم- كانوا مُستهدفين لدى ابن حزم. وكان يعمل جاهداً على استحضار شخصية مالك بحجمها الحقيقي دون تنقص منها أو المبالغة في تعظيمها، وهكذا فقد جاء تناصّ ابن حزم من شخصية مالك مغلفاً بحيادية مصطنعة إلى حدّ ما، لكنّ هذا الأمر خفف وطأة الهجوم على المذهب المالكي، وأفسح مجالاً أكثر لقبول آراء ابن حزم عند أتباع مالك أنفسهم.

(٢) "لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه".<sup>٢</sup>

نرى هنا أنّ التناصّ مع شخصية خالد بن الوليد -رضي الله عنه- شكّل مخرجاً نفسياً لابن حزم. فلم يكن راضياً عن الأحوال البائسة للأمة حوله؛ فالممالك الممزقة، والحكام المتأمرين مع النصاري، وحالة الضياع، وتمكّن اليهود من الوصول إلى مفاصل الدولة، كل ذلك أسهم في تردي حالة ابن حزم النفسية. فشخصية خالد بن الوليد -رضي الله عنه- ذات أبعاد دينية وتاريخية وعسكرية، وموقفها الأبرز في توحيد الجيوش الإسلامية في معركة مؤتة، هو ما تحتاجه الأمة تماماً، حسب ما يوحى نصّ ابن حزم.

<sup>١</sup> - ابن حزم : رسائل ابن حزم ص ٣/٧٦.

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه ص ٣/١٧٦.



(٣) "تفكر يا أخي كيف أسلم النجاشي وبأذان والمنذر بن ساوى وعباد وجيفر أبنا الجلندي وذو الكلاع وذو ظليم وذو مران وذو زود ملوك بلادهم؛ وكيف أسلم الستة من الأنصار والاثنى عشر، والثلاثة وسبعون الذين هم خيار أهل الأرض، هل طلب واحد منهم المعجزة"<sup>١</sup>.

يحشد ابن حزم في نصّه هذا شخصيات عديدة، وكلهم له مرتبة دنيوية أو أخروية عالية، وهذا التناصّ يستدعي الشخصية بكامل زخمها، ومع أهم أحداث حياتها، مما يشكل دليلاً إقناعياً ونموذجاً إقتدائياً للمتلقي. فمثلاً، كان استحضار ابن حزم لشخصية (النجاشي)<sup>٢</sup> بمثابة استحضار لموقفه الخالد تجاه القرآن الكريم، واكتفائه به دليلاً ومعجزة في حادثة الهجرة إلى الحبشة. وهذا تحديداً ما يريده ابن حزم من متلقيه، وهو أن يتبع النص دون السؤال عن العلة أو الحكمة.

(٤) "ودعُ عنك بالله حماقات أهل السفسطة المسخرين لحماقات كتب ابن فورك<sup>٣</sup> والباقلاني<sup>٤</sup> وما هنالك"<sup>٥</sup>.

يشابه هذا التناصّ النموذج السابق من ناحية استحضار الشخصيات، للتأثير في الخصوم. ويختلف عنه في أنّ الاستدعاء جاء هنا لشخصيات ذات دلالة سلبية تحمل طاقة تنفيرية طارئة.

### ٣- التناصّ مع الشعر في مناظرات ابن حزم

لابن حزم ديوان شعري مجموع من مؤلفاته<sup>٦</sup>، خاصة من كتابه (طوق الحمامة). يقول (الطاهر مكي): "فصنع الحميدي الأندلسي المتوفى عام ٤٨٨هـ = ١٠٩٥م ديوان ابن حزم المتوفى عام ٤٥٦هـ - ١٠٦٣م، ورثبه على حروف المعجم ولما يصلنا"<sup>٧</sup>. كما أنّ لابن حزم آراء نقدية في الشعر، وله موقف من قضايا الشعر

<sup>١</sup> - ابن حزم : رسائل ابن حزم ص ٣/١٩٩.

<sup>٢</sup> - هو الأصم بن ابجر ملك الحبشة. انظر قصته في: الطبري: تاريخ الطبري ص ٣٣٠-٣٣١/٢.

<sup>٣</sup> - هو أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك المتكلم الأصولي الأديب. انظر ترجمته: ابن خلكان: وفيات الأعيان ص ٢٧٢-٢٧٣/٤.

<sup>٤</sup> - هو القاضي أبو محمد بن الطبيب البصري المتكلم المشهور. انظر ترجمته: ابن خلكان: وفيات الأعيان ص ٢٦٩-٢٧٠/٤.

<sup>٥</sup> - ابن حزم : رسائل ابن حزم ص ٣/١٩٣.

<sup>٦</sup> - راجع: ديوان الإمام ابن حزم الظاهري، تحقيق: صبحي رشاد عبد الكريم، طنطا - مصر، دار الصحابة للتراث بطنطا، (د . ت).

<sup>٧</sup> - مكي : مصادر الأدب ص ٩٧.

الرئيسية التي شغلت النقاد القدماء، كما أنه يرفض أشعار التغزل بالذكر وأشعار التصعلك والتغرب والهجاء<sup>١</sup>.

من أجل ذلك، كان ابن حزم قريباً من الشعر، بل لولا انشغاله بالفقه والجدل لكان له شأن آخر مع الشعر. فلا يُستغرب أن يتناص في مناظراته مع أبيات من الشعر، أو أن نجد بينها كلمات لها أصول شعرية مخبأة فيها. ومن أمثلة ذلك:

(١) "ولله درّ القائل:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته

وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

ووضع الندى في موضع السيف بالعل

مضرّ كوضع السيف في موضع الندى"<sup>٢</sup>

كثيراً ما ردد ابن حزم معاني هذه الأبيات، خاصة حين يعارض الحرية الكبيرة الممنوحة لليهود في الأندلس، ويرفض تقلدهم للمناصب المختلفة، وهنا، سمح ابن حزم للنص الشعري أن يحضر بكلّيته، وبكل ما يحمل من تأثير على العقل والوجدان.

(٢) يقول ابن حزم:

"خلت الديار فسدت غير مسودّ

ومن الشقاء تفردني بالسودد"<sup>٣</sup>

ربما لن يستطيع النثر وحده القيام بالمهمة التي نهض بها هذا التناص الشعري، فحرية الشاعر عند الفخر بنفسه أوسع مجالاً في الشعر، وسيكون أقلّ مؤاخذه على كلماته كما هو الحال لو أوردها نثراً، وهذا التحرر أسهم في إنفتاح الدلالة النصّية، وإعطاء مزيد من الحرية التعبيرية لابن حزم.

(٣) "ورحم الله الخليل بن أحمد الرجل الصالح حيث يقول:

اعمل بعلمي ولا يضررك عملي

ينفعك علمي ولا يضررك تقصيري"<sup>٤</sup>

<sup>١</sup> - راجع: ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٦٧-٦٩/٣ و ٣٥٤-٣٥٦/٤.

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه ص ٣/٤٥. وانظر البيت في: المتنبي: ديوان المتنبي ص ٢٨٨.

<sup>٣</sup> - المصدر نفسه ص ٣/١٤٤. وانظر البيت في: الأصفهاني: حلية الأولياء ص ٧/٢٧٤.

<sup>٤</sup> - المصدر نفسه ص ١٧٩-٣/١٨٠. وانظر البيت في: ابن قتيبة: عيون الأخبار ص ٥/١٢٥.

ربما يكشف هذا التناصّ عن تغليب المعنى على اللفظ، حيث يعتد ابن حزم بمضمون البيت ويوجهه لمقابليه، دون الإهتمام بجمالية البيت نفسه والشعرية فيه ، ومن هذا تستشفّ النظرة النفعية التي يتصورها ابن حزم عن اللغة وعن الشعر.

(٤) "وما أقول لك إلا كما قال جرير:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت

فتلك طريق لست فيها بأوحد

لعل الذي يبغي وفاتي ويرتجي

بها قبل موتي أن يكون هو الردي"<sup>١</sup>

شكّل التناصّ الشعري هنا مسانداً لابن حزم، في تكثيف مشاعره والبوح بها، خاصة أنّ الموقف يستدعي هذا التكثيف، لأنّ الخصوم يبثون مشاعرهم ويبوحون بما في صدورهم، وبغض النظر عن سلبية هذه المشاعر، فإنّ ابن حزم محتاج إلى ما يساعده في إخراج إحساسه اللامبالي تجاه هؤلاء، مع إعطاء مزيد من الإدهاش للسامع، فكان النص الشعري خير معين على ذلك.

(٥) "وإنّ ذمّهم زين لمن ذمّوه، ومدحهم غضاضة على من مدحوه لأنّهم لا ينطقون عن حقيقة"<sup>٢</sup>.

يمكن أن يتقارب هذا مع بيت المتنبي :

وإذا أنتك مذمتي من ناقص

فهي الشهادة لي بأنّي كامل<sup>٣</sup>

هذا التسلل الخفي، يمكن أن يُشير إلى تشرّب ابن حزم للارث الشعري، وخاصة شعر المتنبي، ومن الواضح أنّ هذا التناصّ منح كلام ابن حزم مزايا شعرية، وتكثيفاً دلالياً كبيراً.

(٦) "وبعد، فلتطبّ نفسك بعد أن تذيقها برد اليأس"<sup>٤</sup>

<sup>١</sup> - ابن حزم : رسائل ابن حزم ص ٣/١٢٧. البيتان من قصيدة في ملحق ديوان عبيد بن الأبرص: ٨٠ ولم ينسبهما أحد لجرير.

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه ص ٣/١٢٢.

<sup>٣</sup> - المتنبي : ديوان المتنبي ص ٢٦٠.

<sup>٤</sup> - المصدر نفسه ص ٣/١٢٧.

إنّ الاقتراب المكاني والزمني بين ابن حزم (وابن زيدون) يُغرينا بأن نُرجع الكلام السابق ونقاربه مع بيت شعري لابن زيدون، في قصيدته المشهورة (أضحى التناهي بديلاً عن تدانينا) حيث يقول:

كنا نرى اليأس تسلينا عوارضه

وقد يئسنا فما لليأس يُغرينا<sup>١</sup>

من الطبيعي أنّ التناصّ هنا جاء مقلوب الدلالة، بعيداً كل البعد عن شكله الأول حيث الحب والشوق، فابن حزم وظّفه في نصه بعد أن بذل وسعه في إقناع خصمه دون فائدة، فلا أقل من أن يجازيه بكلام يشفي غليله، جزاء المناكفة والمشغبة، فكان الاختيار الشعري، بشكله المعكوس، الخيار الأفضل.

#### ٤- التناصّ مع الأمثال والأقوال في مناظرات ابن حزم

يُعد المثلُّ أحد أهم أشكال الاستثمار اللغوي، لما يحمله من تجربة جمعيّة وإيجاز واختصار، وقدرة على نقل الخبرات بأقل كلفة لفظية، مع ضمان الصفة التأثيرية، شأنه بذلك شأن النصوص الإبداعية، لذا لم يفتّ ابن حزم استثمار طاقة المثل، وتوجيهه في سياقات وإطارات متعددة. وبالطبع، فإنّ التعامل مع الأمثال يحتاج خبرة تراثية عالية، إضافة إلى قدرة على التعامل مع هذا المثل من حيث اختيار زمانه ومكانه وسياقه المناسب. وهذه الخبرة وتلك القدرة كانتا من أهم مميزات ابن حزم.

(١) يتحدث ابن حزم عن حال المبدع في الأندلس، ويشكو من انقلاب الناس عليه إذا أراد سلوك طريق الإبداع والتميز، فالنتيجة حينئذ: "فهناك حمي الوطيس على البائس، وصار غرضاً للأقوال وهدفاً للمطالب"<sup>٢</sup>.

هذا التركيب هو في الأصل مثل، ونصّه: (قد حمي الوطيس). "قال الأصمعي وغيره: الوطيس: حجارة مدورة فإذا حميت لم يمكن أحد أن يطأ عليها. يضرب للأمر إذا اشتدّ، ويروى أنّ النبي -صلى الله عليه وسلم- رُفعت له أرض مؤتة فقال: الآن حمي الوطيس، أي اشتدّ الأمر"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> - ابن زيدون: ديوان ابن زيدون ص ٢٩٩.

<sup>٢</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٢/١٧٧.

<sup>٣</sup> - الميداني: مجمع الأمثال ص ١٠٤-١٠٥.

من المؤكد أنّ ابن حزم يقصد ذاته حين يتذمر من واقع وحال المبدعين في زمانه، وما يعنينا هنا أنّ هذا التناسخ النصي للمثل أسهم في رسم صورة ساخرة للمشهد الاجتماعي المتسلط على المبدع، ليكون هذا المشهد والاكتفاء بعرضه دون طرح حلول، محفزاً ودافعا لتجاوز هذا الواقع.

(٢) ويكمل ابن حزم عن الموضوع نفسه، فيقول: "وإن باكر [المبدع] الحيازة لقصب السبق قالوا: متى كان هذا ومتى تعلم وفي أي زمان قرأ"<sup>١</sup>.

هنا تناص مع قولة: (حاز قصب السبق)، فقد جاء في (لسان العرب): "ويقال للمُراهن إذا سبق: أحرز قصبه السابق... وقيل للسابق أحرز القصب، لأنّ الغاية التي يسبق إليها، تُدْرَع بالقصب، وتركز تلك القصبه عند منتهى الغاية، فمن سبق إليها حازها واستحق الخطر. ويقال: حاز قصبَ السبق أي استولى على الأمد"<sup>٢</sup>.

إنّ عملية تسخير المثل في النص الجديد ستبسط أرضية مشتركة بين ابن حزم وسامعيه، سيّما أنّ الأمثال -في العادة- تكون مركوزة في الذاكرة الجمعيّة. إضافة إلى ذلك سيُمدّ النصّ الجديد بطاقة مملوءة حركة وحيوية، وتعدداً في الأصوات داخل النص الواحد.

(٣) "وأما جهنتنا فالحكم في ذلك ما جرى به المثل السائر: أزهد الناس في عالم أهله"<sup>٣</sup>. جاء في (مجمع الأمثال): "مَثَلُ الْعَالَمِ كَالْحَمَةِ يَأْتِيهَا الْبَعْدَاءُ وَيَزْهَدُ فِيهَا الْقُرْبَاءُ. الْحَمَةُ: الْعَيْنُ الْحَارَةُ الْمَاءِ، وَهَذَا مَثَلُ قَوْلِهِمْ: أَزْهَدُ النَّاسُ فِي الْعَالَمِ أَهْلُهُ وَجِيرَانُهُ"<sup>٤</sup>.

قليلاً ما يتناص ابن حزم مع الأمثال بشكل مباشر، وهنا، ربما وجد نفسه مضطراً لخطاب قومه، الذين تنكروا له ولعلمه، فخاطبهم بجنس ما يفهموا، وبما أنّ المثل هو أداة شعبية بامتياز، فسيخره لمواجهة قومه ومجتمعه.

(٤) "أما قولهم ليرفع الناس رؤوسهم إلينا، فكذب واضح، وما أردنا قطّ التروّس على أمثالهم، ولو أردنا ذلك لسلكنا سبيلهم في التقليد، ولو فعلنا ذلك لما شقوا غبارنا في

<sup>١</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ١٧٧/٢.

<sup>٢</sup> - ابن منظور: لسان العرب ص ٦٧٧/١.

<sup>٣</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ١٧٧/٢.

<sup>٤</sup> - الميداني: مجمع الأمثال ص ٢٨٣.

الرياسة في الدنيا، هذا ما لا يقدرّون على إنكاره"<sup>١</sup>. في هذا الكلام تناص مع المثل: "ما يشق غباره، يُراد أنّه لا غبار له فيُشَق، وذلك لسرعة عدّوه وخقّة وطئه"<sup>٢</sup>.

إنّ الحديث عن البواطن والنوايا هو الحديث الذي لا يجيده ابن حزم، إذا كان في معرض النص، لأنّه ظاهري بكيّته، وقد تكرر اتهامه بأنّ باطنه زائف، وإنما يسعى لكسب أغراض دنيوية من مؤلفاته ومناظراته، لذا جاء الردّ على ذلك جلياً واضحاً، وقد ساهم المثل المتضمن في نصه بهذا الرد القوي.

على مستوى آخر، وفرّ التناصّ مسحةً إبداعيةً لكلام ابن حزم، بما يحويه المثل من كناية، ومن (عكس للظاهر)، إذ إنّ المثل يتحدّث عن (العُبار) غير الموجود أصلاً، فكيف يُشَق؟!

(٥) "ليت شعري على ماذا يحصل المسكين الذي يطلب العلم ليحظى به في دنياه، والله لا حصل من ذلك إلا على دنيا منغصة، ولباس خشن ولذات يستتر بها استتار الغراب بسفاده ولا يتنهاها موفورة"<sup>٣</sup>.

جاء عن هذا القول (سفاد الغراب): "وفي طبع الغراب كله الإستتار عند السفاد"<sup>٤</sup>. ويتناص ابن حزم مع هذه القولة في معرض هجومه على علماء السلاطين، المتذبذبين والمنافقين، والذين لم يكسبوا الآخرة، ولا حققوا المتعّ الدنيوية، وهنا نرى أنّ التناصّ أضاف عنصر الإمتاع والإدهاش إلى النص، وعالج القضية بعمق وجراءة أكبر.

(٦) "لا تقدّر على إنكار ذلك، وإن رَغِمَ أنفك ونضجت كبذك غيظاً"<sup>٥</sup>. يتناص ابن حزم مع مقولة: (نضج كبده): "وهو هنا كناية عن نهاية الكمد الحاصل للقلب، أو استعاره. شبه تحسير القلب وإكماده بإنضاج اللحم الذي يؤكل... وروي أيضاً كبده"<sup>٦</sup>. نلاحظ هنا أنّ التناصّ مع هذا القول رسخ الدلالة، وأظهر مدى ثقة ابن حزم بما يقول، وأنّ خصمه لن يستطيع إنكاره.

(٧) "ثمّ لما ضمنا المجلس الحافل بأصناف الآداب، والمشهد الأهل بأنواع العلوم، والقصر المعمور بأنواع الفضائل، والمنزل المحفوف بكل لطيفة وسيدة من دقيق المعاني وجليل المعالي، قرارة المجد ومحل السؤدد، ومحط رجال الخائفين، وملقى عصا

<sup>١</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٠٩.

<sup>٢</sup> - الميداني: مجمع الأمثال ص ٢٩٤.

<sup>٣</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٧١.

<sup>٤</sup> - الدميري: حياة الحيوان ص ٣/٢٦٢.

<sup>٥</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٢١.

<sup>٦</sup> - البغدادي: خزنة الأدب ٦/١٢٤.

التسيار"<sup>١</sup>. هذا نص قليل الأشباه عند ابن حزم، إذ قلماً يمدح، وإن مدح فقلماً يبالغ في مدحه. والشاهد في النص (ملقى عصا التسيار)، وهو قول يشير إلى الاستقرار وترك الانتقال، وقد جاء في (البيان والتبيين): "وقال مضرس الأسدي: ...

فألقت عصاها واستقرت بها النوى

كما قرّ عينا بالإياب المسافر"<sup>٢</sup>

وقال الميداني: "قد ألقى عصاه إذا استقر من سفر أو غيره"<sup>٣</sup>. وقد زاد هذا التناص من قيمة المدح، وجعله أبلغ، وأكثر قبولاً عند الممدوح.

(٨) "أما علموا أنّ القرآن بيان من الله تعالى، وإذا شهدوا لنا باللغة تصوب قولنا، فقد فزنا -ولله الحمد- بالقده المعلى"<sup>٤</sup>.

يقول (ابن منظور) عن (القده المعلى): "قال أبو العباس أحمد بن يحيى: أراد بقوله بسهميك هاهنا سهمي قده الميسر، وهما المعلى والرقيب، فللمعلى سبعة أنصباء وللرقيب ثلاثة، فإذا فاز الرجل بهما حاز على جزور الميسر كلها ولم يطمع غيره في شيء منها"<sup>٥</sup>.

لقد أراد خصوم ابن حزم أن يذموه، فقالوا إنه إنما يتلاعب بالكلام لامتلاكه ناصية اللغة، فتوقف عند الجزء الذي شهدوا له فيه بفصاحته، ثم أسعفته ثقافته الكبيرة، واطلاعه على عادات العرب وطقوسهم في جاهليتهم، على تكثيف المعنى وتعميقه، من خلال هذا التناص.

## ٥- التناص التاريخي في مناظرات ابن حزم

إنّ التاريخ من العلوم التي برع بها ابن حزم، بل لقد عدّ صاحب مدرسة تاريخية، لها نظرتها الخاصة للتاريخ، والمنسجمة مع (الظاهر). وقد وظّف ابن حزم أدوات النقد الحديثي، وعلم الجرح والتعديل في عملية نقد التاريخ، وتعامل معه كعلم، وأخضعه تبعاً لذلك لقواعد صارمة، ونقده داخلياً وخارجياً، أي نقد السند والمتن. كما لم يتبع الطريقة السائدة في عرض الأحداث التاريخية، إنما نظر إليها بشمولية، وربط الأحداث، وصنّفها

<sup>١</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٢/١٧٢.

<sup>٢</sup> - الجاحظ: البيان والتبيين ص ٣/٤٠.

<sup>٣</sup> - الميداني: مجمع الأمثال ص ١٠١.

<sup>٤</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٨٥.

<sup>٥</sup> - ابن منظور: لسان العرب ص ٤/٥٧٣.

وقسمها، واستخدم المنهج الإحصائي. كل ذلك لتحقيق الغاية التعليمية والوعظية من التاريخ.

وقد استقى ابن حزم التاريخ من مصادر متعددة؛ مما كان متوافراً في عصره من كتب، ومن الكتب المقدسة، وكتب السير النبوية. وقد ألف في التاريخ مؤلفات عدة أهمها: (جمهرة أنساب العرب) و(رسالة نقط العروس) ورسالة (جُمْل فتوح الإسلام) ورسالة (فضل الأندلس وذكر رجالها) و(جوامع السيرة النبوية) وفي مجال السير الذاتية ألف كتابه المميز (طوق الحمامة).

ما يهمنا هنا، أن الإرتداد التاريخي وتوظيف التاريخ في نصوص ابن حزم كان له آثار فنية وإقناعية، وجعل لتلك النصوص تفاعل حقيقي مع الحياة الإنسانية. ومن نماذج التناصّ التاريخي:

(١) "وهم [يعني اليهود] مقرّون بأن يهوآحاز بن يوشيا الملك الداوودي المالك لجميع بني إسرائيل بعد انقطاع ملوك سائر الأسباط، بَشَرَ من التوراة أسماء الله تعالى وألحق فيها أسماء الأوثان".<sup>١</sup>

هنا يحاول ابن حزم إثبات تحريف التوراة، ويوظف لذلك شخصية تاريخية، هي (يهوآحاز) والذي قال عنه (ابن العبري): "(يهوآحاز بن يوشيا) ملك ثلاثة أشهر، كان فاسد الطريقة فسباه فرعون الأعرج في عوده وأوثقه بالحديد وأنفذه إلى مصر ومات هناك".<sup>٢</sup>

وقد استفاد ابن حزم من هذا التناصّ التاريخي مزيداً من الحيوية، وتعددا للأصوات داخل نصه، مع الأخذ بالاعتبار المكانة التي يحظى بها التاريخ، وصعوبة إنكاره عند المتلقي، مما يشكل إدهاشاً وإقناعاً لديه.

(٢) "ثمّ ركب البحر بعد ذلك أيام سليمان بن عبد الملك إلى القسطنطينية، وكان الأمير بها في تلك السفن هبيرة الفزاري، وأما صقلية فإنها فُتحت صدر أيام الأغلبة سنة ٢١٢، أيام قاد إليها السفن غازياً أسد بن الفرات القاضي صاحب أبي يوسف رحمه الله تعالى، وبها مات، وأما إقريطش فإنها فُتحت بعد الثلاث والمائتين، افتتحها أبو حفص عمر بن شعيب".<sup>٣</sup>

<sup>١</sup> - ابن حزم : رسائل ابن حزم ص ٣/٦٦.

<sup>٢</sup> - ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ٦٨-٦٩.

<sup>٣</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٢/١٧٤.



يذكر (ابن الأثير) في (الكامل في التاريخ) في أحداث سنة (٩٧هـ): "في هذه السنة جهّز سليمان بن عبد الملك الجيوش إلى القسطنطينية"<sup>١</sup>. ويقول -أيضاً- عن (أسد بن الفرات): "في سنة اثنتي عشر ومائتين جهّز زيادة الله جيشاً في البحر وسيّرهم إلى جزيرة صقلية، واستعمل عليهم أسد بن الفرات، قاضي القيروان، وهو من أصحاب مالك... فلمّا وصلوا إليها ملكوا كثيراً منها"<sup>٢</sup>.

يأتي هذا التناصّ التاريخي ضمن حجج ابن حزم لإثبات فضل الأندلس وفضل فاتحيها، وقد منح النصّ التاريخي حجج ابن حزم خصوبة وقطعية.

(٣) "فلا يجوز أن يخصّ من هذا شيء [يعني سماع الأموات لكلام البشر] إلا ما خصّه النصّ الصحيح، كخطاب النبي لأهل القلب، فهو مستثنى"<sup>٣</sup>.

يتناصّ ابن حزم مع حدث هام من أحداث السيرة النبوية، وهو الحدث الذي جاء بعد غزوة بدر، حين وُضع قتلى قريش في بئر (القلب)، وخاطبهم الرسول -صلى الله عليه وسلم- وهم أموات فقال: "هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً؟ قالت [راوية الخبر]: فقال له أصحابه: يا رسول الله، أتكلم قوماً موتى؟ فقال لهم: لقد علموا أنّ ما وعدهم ربهم حق"<sup>٤</sup>.

يكشف هذا التناصّ التاريخي والديني عن نظرة ابن حزم التحليلية لأحداث التاريخ، وهذا من شأنه أن يعطيه مزيداً من المصداقية والقبول عند الطرف المقابل.

(٤) "وعلم العدد الذي تكلم فيه أندروماخس مؤلف كتاب الأرثماطقي في طبائع العدد... وعلم المساحة الذي تكلم فيها جامع كتاب أقليدس... وعلم الهيئة الذي تكلم فيه بطليموس، ولونخس قبله"<sup>٥</sup>.

(٥) "وعلم الطب الذي تكلم فيه أبقرط وجالينوس وذياسقوريدس ومن جرى مجراهم"<sup>٦</sup>.

(٦) "فإنهم في آرائهم في أديانهم يختلفون: هذا بيّن في كتبهم، فبعضهم يثبت حدوث العالم كسقراط وأفلاطون، وبعضهم يثبت أنه لم يزل وأنه له فاعل لم يزل يخلق، وهذا

<sup>١</sup> - ابن الأثير: الكامل في التاريخ ص ٤/٣٠٣.

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه ص ٥/٤٣٦.

<sup>٣</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٢٢٣.

<sup>٤</sup> - ابن هشام: صحيح السيرة النبوية ص ٢٣٢-٢٣٣.

<sup>٥</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٣٢.

<sup>٦</sup> - المصدر نفسه ص ٣/ ١٣٣.

قول ينسب إلى أرسطاطاليس، وبعضهم يثبت النبوة والمعاد والجزاء في المعاد والملائكة كأفلاطون وصاحب كلية ودمنة"<sup>١</sup>.

في النصوص الثلاثة السابقة رأينا حشداً كبيراً لشخصيات تاريخية وفلسفية، وهذا بحدّ ذاته ثورة على النمط السائد في عصر ابن حزم، الذي يرفض الفلسفة والفلاسفة كلياً. وبما أنّ ابن حزم مقتنع بفائدة علم المنطق والفلسفة، فإنّه سيستفيد منهما في مناظراته، خاصة تلك الحاصلة مع الفلاسفة أنفسهم، وهذا من شأنه أن يعين ابن حزم على مسايرتهم في علمهم وطريقتهم ، ويناقشهم بالطريقة التي يفهمونها.

وهكذا، فقد مكّن التّناسُّ بأشكاله المتعددة- ابن حزم من الوقوف على أراضيات مشتركة بينه وبين خصومه من جهته، وبينه وبين سامعه ومتلقيه من جهة أخرى. وقد كان مخلصاً لجميع علومه ومعارفه، يوظفها في خدمة مناظراته، في الزمان والمكان المناسبين.

---

<sup>١</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٤٠.

## الفصل الثاني

### معجم ابن حزم اللغوي من خلال المناظرات

١ - المعجم اللغوي عند ابن حزم وكلماته المفاتيح من خلال مناظراته

٢ - الثروة عند ابن حزم

٣ - أبعاد المشروع الظاهري عند ابن حزم

## توطئة

إنّ النص وليدٌ لمبدعه، يحمل - بوعي أو لاوعي - جينات صاحبه وسماته، وبالتالي، فإنّ نصوص مناظرات ابن حزم ستحمل طابعه وملامحه الفكرية والنفسية، وهذا ما يشجع على الوقوف عند معجم ابن حزم، ورصد هذا المعجم كمياً وإحصائياً، لأنّ هذا المعجم أصدق من يحدثنا عن ابن حزم، ويرشدنا إلى مراميه وغاياته وطبيعة فكره.

ولأنّ ابن حزم غزير التأليف، كثير المناظرة، فإنّ هذا سيجعل رصد معجمه اللغوي مهمة غاية الصعوبة، لذا فإننا سنتوقف عند جانب من الحقول المعجمية وهو الجانب المتصل بالهجاء والحدة والسُّباب. وتوقفنا هذا لا يعني - بأيّ حال - أنّ هذا الجانب (السلبى) هو الصورة الكاملة لابن حزم، لأنّ ابن حزم - كما عرفنا - شخصية متعددة الجوانب. وما شجع على الوقوف على هذا الجانب أنّه جانب اشتهر به ابن حزم، كما أنّ له أبعاداً وغايات كثيرة.

وسيقودنا البحث في أبعاد الهجاء والحدة عند ابن حزم إلى ما نسميه ثورة ابن حزم وتمرده، على اعتبار أنّ هذا الهجاء صورة من صور الثورة الفكرية لدى ابن حزم. وسنلجأ إلى الإحصاء العددي لمفردات الهجاء عند ابن حزم، للوقوف على دلالات المصطلحات الأكثر تكراراً، ونتعامل معها على اعتبار أنّها (كلمات مفاتيح) سنحاول استكناه دلالاتها.

## المعجم اللغوي عند ابن حزم وكلماته المفاتيح من خلال مناظراته

في هذا الفصل سنحاول التعامل مع مناظرات ابن حزم من وجهة إحصائية، لنُدور حول هذه المناظرات من عدة زوايا، أملاً في الكشف عن أدبيتها. إنّ الأساس في دراستنا هذه هو ما يسمى (المعجم الشعري)، ولأنّ هذا المعجم له نتائج مميزة في رصد دلالات الكلمات في الشعر، فإننا استنسَخنا هذا المعجم على شكل معجم لغوي رصدنا فيه دلالاته في مناظرات ابن حزم النثرية.

إنّنا في دراستنا المعجمية هذه نشترك مع المحلل اللغوي في الاهتمام بجمل ابن حزم ومفرداته، ونفترق عنه في أنّنا سنتجاوز هذه الجمل والمفردات وننتقل منها إلى تحليل النص بكامله. وقبل كل شيء، سيكون هذا المعجم هو أداة مهمة لنميز النص

الإبداعي من غيره، بالنظر إلى ما يحويه من خصائص فنية ينفرد بها عن غيره من النصوص<sup>١</sup>. وقد اعتنى الدارسون بهذا النوع من الدراسة المعجمية، نظراً لأنه "لحمة أي نص كان، ويحتل مكاناً مركزياً في أي خطاب"<sup>٢</sup>.

إن فلسفة المعجم اللغوي أو الشعري ناشئة من مركزية اللفظة، لأن اللفظة لها خصوصيتها عند المبدع الذي يشعر ويدرك بما "في الألفاظ من أسرار وشحنات من الذكريات والعواطف"<sup>٣</sup>، وذلك لأنه "عميق الشعور، حاد التصور، متسع جوانب النفس، غني الخواطر"<sup>٤</sup>. ولا يمكن بحال أن نتصور عبثية أو عشوائية اللفظ عند المبدع الحقيقي لأن هذه الألفاظ تمثل رموزاً توصل إلى نفس القارئ الصور والمعاني التي يريد المبدع إيصالها، بكل ما تحمله من ذكريات وملابسات وخواطر، وكلما كان المبدع أصدق شعوراً، زادت قيمة هذه الألفاظ وقدرتها التعبيرية والتصويرية<sup>٥</sup>.

ويمكن متابعة المعجم اللغوي عند المبدع بطرق شتى، ومن تلك الطرق؛ رصد علاقات الألفاظ داخل النص بناءً على نوع العلاقة التي تربطها معاً، فقد تكون علاقة عموم بخصوص، أو العكس، مثل علاقة لفظة (الأيام) مع (الليالي). وقد يكون الارتباط بعلاقة حرة استدعائية، كما هو الحال من لفظة (الاثنين) المرتبطة بكلمة (الأحد) مثلاً<sup>٦</sup>. ورغم أن كلمات المعجم قد تكون "مفاتيح النص ومحاوره التي يدور عليها"<sup>٧</sup>، إلا أنه يُوجّه لهذا المنهج الإحصائي اعتراض مهم، يتلخص في أنه قد يأتي بنتائج زائفة، عندما تُعزل الكلمات عن سياقها النصي، وتعامل منفردة<sup>٨</sup>. ويردّ (محمد مفتاح) على هذا الاعتراض بأن المعجم اللغوي والطريقة الإحصائية "تضع يدنا على بعض الترددات هي ذات مغزى، فلا أحد ينكر دورها في رصد المحاور التي يدور عليها الديوان أو القصيدة، ولا أحد يجادل في أن تلك الترددات تضمن انسجام النص مع نفسه، ومع النصوص الأخرى التي ينتمي إلى جنسها"<sup>٩</sup>.

<sup>١</sup> - انظر: البستاني: المعجم الشعري ص ١٣٦.

<sup>٢</sup> - مفتاح: تحليل الخطاب الشعري ص ٦١.

<sup>٣</sup> - أبو بكر: قضية المعجم الشعري ص ١.

<sup>٤</sup> - المصدر نفسه ص ١.

<sup>٥</sup> - انظر: المصدر نفسه ص ١.

<sup>٦</sup> - انظر: مفتاح: تحليل الخطاب الشعري ص ٦٠-٦١.

<sup>٧</sup> - المصدر نفسه ص ٥٨.

<sup>٨</sup> - انظر: المصدر نفسه ص ٦٠.

<sup>٩</sup> - المصدر نفسه ص ٦٠.

وتقودنا تعدد وجهات النظر هذه إلى الأصل الذي انبثق منه المعجم الشعري، وهو المنهاج الإحصائي، وصحة إقحامه في تحليل النصوص الأدبية. إنّ فلسفة المنهج الإحصائي قائمة على محاولة إكساب التحليل الأدبي بُعداً موضوعياً، على اعتبار أنّ الإحصاء (علم)، وبالتالي له معايير ووضوابطه، التي ستعكس على التحليل الأدبي وتكسبه مصداقية أكبر<sup>١</sup>. فمثلاً "لا يستوي ورود الصيغة اللفظية أو الجملة مرة، أو ورودها عشر مرات في نص أدبي ما، فكل دلالة"<sup>٢</sup>. إنّ العمل الإحصائي في النصوص الأدبية يقدم بيانات دقيقة، وأرقاماً ونسباً يمكن من خلالها التعرف على سمات هذا النص وخواصه<sup>٣</sup>.

ومع كل ما يقدمه هذا المنهج فإننا لا ننكر أنّ له جوانب سلبية، قد تبعد الدراسة عن أدبيتها، وقد تعجز عن الفهم الحقيقي للنص، وتكتفي بظواهر الأمور "ولا تقدّم للقارئ أهم خصائص النص وهو التأثير والإمتاع"<sup>٤</sup>

وخلال متابعتنا لمعجم ابن حزم إحصائياً، فإننا سنحاول اكتشاف الألفاظ المحورية في مناظرته، أو ما يسمّى (بالكلمات المفاتيح) والتي تُعرّف بأنها "الكلمات التي يكون لها ثقل تكراري وتوزيقي في النص بشكل يفتح مغاليقه ويبدد غموضه، وهي تمثل منهجاً من المناهج الستة للنقد الالسنّي"<sup>٥</sup>.

إحصائياً، يمكن اختبار الكلمات المفاتيح عن طريق التكرار، فالكلمات التي يكثر تكرارها ستكون ذات أهمية خاصة لدى المبدع، مع ملاحظة أنّه ليس بالضرورة أن تكون هذه الكلمات المفاتيح هي الأكثر تكراراً، وإنّما الكلمات التي يشعر الناقد أنّها مسيطرة على النص وتشكل نقطة ارتكاز محوري له<sup>٦</sup>.

وعليه، فإنّ لكل عمل أدبي - تقريباً - كلماته المفاتيح الخاصة به، والتي "تعدّ مدخلاً لحركة الإبداع الداخلية للنص ذاته، فلا تتحول من عمل فني إلى آخر، فإذا انتقلت من مكانها فقدت هويتها وأصبحت كلمات عادية"<sup>٧</sup>. على المستوى النقدي، تشكّل هذه

<sup>١</sup> - انظر: أبو العوس: الأسلوبية ص ١٤٨ .

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه ص ١٥٠ .

<sup>٣</sup> - انظر: المصدر نفسه ص ١٥٠ .

<sup>٤</sup> - المصدر نفسه ص ١٤٩ .

<sup>٥</sup> - المصدر نفسه ص ١٩٣ .

<sup>٦</sup> - انظر: المصدر نفسه ص ١٩٤ و ١٩٨ .

<sup>٧</sup> - المصدر نفسه ص ١٩٦ .

الكلمات المفاتيح أدوات فاعلة، ينفذ من خلالها الناقدُ أو القارئُ إلى النص وإلى مؤلف النص، كاشفاً عن مكنوناته النفسية بدقة وانضباط وعمق.

إنّ الانتقاد الموجه إلى هذا النوع من القراءة للنص هو نفسه النقد الموجه للمنهج الإحصائي عموماً، بالإضافة إلى الخشية من إهمال الناقد كثيراً من الجوانب الحيوية في النص، بسبب تركيزه على هذه الكلمات المفاتيح<sup>١</sup>. والآن لنستعرض المعجم الإحصائي لألفاظ الهجاء عند ابن حزم.

### جدول رقم (١)

#### المعجم الإحصائي لألفاظ الهجاء عند ابن حزم

الرقم	الكلمة / الجذر	التكرار	مرادفات الكلمة كما وردت في المناظرات والردود			
١	كذب	١٤٤	كذب	أكذب	تكاذبيهم	كاذب
٢	جهل	٩٨	جهل	جهل	أجهل	جاهل
٣	بطل	٩٣	أبطل	مبطل	باطل	
٤	ضلال	٨٧	ضلال	أضل		
٥	كفر	٥٨	كفر	كفرة	كافر	كفار
٦	فسد	٥٤	فسد	مفسد	أفسد	فاسد
٧	خطأ	٤٦				
٨	نقض	٣٨				
٩	ظلم	٣١	ظلم	ظالم		
١٠	حمق	٢٥	حمق	حَمَقَ	حماقاتهم	احموقه
١١	بدع	٢٥	بدع	بدعة	مبتدع	
١٢	ضعف	٢٤	ضعف	ضعيف		
١٣	لعن	٢٣	لعين	ملعون	لعن	لعنه الله
١٤	دعوى	٢٢	دعوى	ادعاء	دعاوىء	لعنة الله

<sup>١</sup> - أبو العدوس: الأسلوبية ص ١٩٤ و ١٩٩.

١٥	سحف	٢١	سحف	سحافة	سحف			
١٦	خسه	١٧	خسيس	خساسة				
١٧	جنون	١٧	جنون	مجنون				
١٨	فاسق	١٥						
١٩	هذر	١٣	هاذر	هذر	أهذار			
٢٠	زنديق	١٢						
٢١	عار	١١	عار	عارى	يتعرى	عاري		
٢٢	نقص	١٠	نقص	ناقص	نقاصة			
٢٣	جد	١٠	جد	مجدود	حجوده			
٢٤	عمى	١٠	أعمى	عمى				
٢٥	أحد	١٠	أحد	إلحاد				
٢٦	مائق	٩						
٢٧	بهت	٩	أبهت	بهتان	مبهوت	بهت	مبهت	
٢٨	خبث	٩	خبث	خبيث	تخابث			
٢٩	زور	٩						
٣٠	خاط	٨	مخاط	خاط	خاطا	يخاط		
٣١	فضح	٨	فضح	يفتضحون	فضائح			
٣٢	أنوك	٧						
٣٣	سفه	٧	سفه	سفها				
٣٤	هذو	٧	هذيانهم	يهذي	ههذيان			
٣٥	إفك	٧						
٣٦	خاب	٧	خاب	خيّب				
٣٧	خذل	٦	مخدول	مخاذيل				
٣٨	مموه	٦	مموهون	تمويهات	تمويه	موهوا		
٣٩	ساقط	٦						
٤٠	طوام	٦	طوامهم	طامة				



٤١	شغب	٦	مشغبين	شغبوا	مشاغب		
٤٢	مرتد	٦					
٤٣	كلب	٥	كلب	كلاب			
٤٤	غث	٥					
٤٥	سفل	٥	سافل	سفلي			
٤٦	غش	٥	غش	غاش			
٤٧	بئس	٥	بئس	بؤسا	بئس		
٤٨	كشف	٥	منكشف	كشف			
٤٩	وقاح	٤					
٥٠	رذل	٤	رذل	مرذولين	رذلة		
٥١	حمار	٤					
٥٢	موسوس	٤	موسوس	موسوسين	وساوس		
٥٣	طمس	٤	طمس	مطموس			
٥٤	سرق	٤	سرقة	سارق	مسروق		
٥٥	خبط	٤	خبط	خابط			
٥٦	سكر	٤	سكران	سكر			
٥٧	بارد	٤					
٥٨	غباء	٤	غباوة	غبي			
٥٩	خشارة	٣					
٦٠	سحقا	٣					
٦١	سرق	٣	سارق	سرقة			
٦٢	فاحش	٣					
٦٣	تافه	٣	تافه	تفاهة			
٦٤	أنتن	٢	أنتن	أنتان			
٦٥	تبا	٢					
٦٦	شاذ	٢	شاذ	شدوذ			

٦٧	سخم	٢	مسخم	سحام				
٦٨	أذل	٢	أذل	ذليل				
٦٩	أشر	٢	أشر	أشِر				
٧٠	شقي	٢						
٧١	خسى	٢	خسئوا	خاسئة				
٧٢	مفتون	٢						
٧٣	سماجه	٢	سمج	أسمج				
٧٤	برسام	٢	برسام	مبرسم				
٧٥	بكم	٢	بكم	أبكم				
٧٦	هوس	٢						
٧٧	نهق	٢	نهيق	ناهق				
٧٨	عواء	٢	عواء	عاو				
٧٩	عديم	٢						
٨٠	منسلخ	٢	منسلخ	إنسلاخ				
٨١	هُجَر	٢	هُجَرهم	هُجَرِيَّة				
٨٢	غِيّ	٢	غِيَّة	غوى				
٨٣	رغم	٢	رَغَم	رُغم				
٨٤	جان	٢	جان	جناية				
٨٥	بطر	١						
٨٦	وسخ	١						
٨٧	زائغ	١						
٨٨	سعات	١						
٨٩	عفن	١						
٩٠	ويحك	١						
٩١	حقير	١						
٩٢	بقر	١						

٩٣	أقذار	١						
٩٤	أنجاس	١						
٩٥	مخبول	١						
٩٦	سليب	١						
٩٧	خيانة	١						
٩٨	صفيق	١						
٩٩	بلاغم	١						
١٠٠	مضحكة	١						
١٠١	شنار	١						
١٠٢	هائج	١						
١٠٣	عور	١						
١٠٤	مخاريق	١						
١٠٥	منبوذ	١						
١٠٦	أبلدهم	١						
١٠٧	دقاف	١						
١٠٨	محارب	١						
١٠٩	مغير	١						

إنّ هذا الكمّ الكبير من ألفاظ الهجاء والسباب تشير بوضوح، إلى تفشّي هذه الظاهرة في مناظرات ابن حزم، والتي نعتقد أنّها شكّل تدثّرت به ثورة ابن حزم. وقد أظهر المعجم السابق هيمنة الكلمات (كذب، وجهل)، وهما الكلمتان اللتان تبرران الثورة على الباطن، وعلى الجهل، من خلال تبني ابن حزم للمشروع الظاهري، كما سنرى لاحقاً.

وهنا، حتى نتّمكن من فهم أدق لهذا المعجم الهجائي، يحسُن بنا أن نتوقف عند الهجاء وفلسفته، وعند موقف ابن حزم منه .

فالهجاء في الشعر العربي هو: "فنّ من فنون الشعر الغنائي، يعبر عن عاطفة الغضب أو الاحتقار أو الاستهزاء... وأبلغ أنواع الهجاء ما يمسّ المزايا النفسية"<sup>١</sup>. وللهجاء حضورٌ كبيرٌ جداً في الشعر العربي، على مرّ عصوره. بل هو من الموضوعات القديمة قديم الشعر، وغرض رئيسي من أغراض الشعر، وقد اشتهر به شعراء كثير كشعراء النقائض مثلاً.

وقد رفض الإسلامُ الهجاء، مُستثنياً ما يتعلق بهجاء أعداء الدين، وقد خفف هذا الرفض من شيوع الهجاء، لكنّه لم يقض عليه. وعلى مرّ العصور كانت تُذكى ناره بمحفزات وعوامل، على رأسها العوامل السياسية.

وقد ارتبط الهجاء -على سلبيته- بأهداف (نبيلة) عند بعض الشعراء، وسخّروه -على قسوته- لمعالجة ظواهر اجتماعية، أو لإصلاح سياسي، أو حتى لتعديل سلوك الأشخاص. وفي فترات تاريخية في الأدب العربي أُستغل الهجاء كأداة لهو وعبث و"تجاوز كل المحاذير المنهي عنها عرفاً وديناً، حتى أصبح الهجاء ضرباً من ضروب اللهو والعبث إلى حدّ الإيغال بما يחדش الحياء"<sup>٢</sup>.

نظرياً، ينقسم الهجاء إلى أقسام عدة؛ فهناك الهجاء الواقعي، وفيه يصوّر المبدعُ الشخصَ المهجوّ على حقيقته دون زيادة. وهناك الهجاء الساخر، حيث تُلصق بالمهجور صفات وإشارات مثيرة للسخرية. وهناك الهجاء الصريح حيث يُصرّح باسم المهجور أو يُشار إليه بشكل مباشر. وعلى العكس هناك الهجاء التعريضي حيث يُلمح إلى المهجور دون أن يُصرّح باسمه. كما أنّ من الهجاء ما يستهدف شخصاً أو ملة أو ديناً أو قوماً بأكملهم. ومنه ما يتناول الصفات الخُلقية، ومنه ما يركز على العيوب الخُلقية.

أمّا موقف ابن حزم من الهجاء، فثمّة تباين كبير بين موقفه النظري منه وبين تعاطيه له، فهو لا يحبّذه في تنظيره، وفي فكره التربوي يرى أنّ المتعلم يجب أن يأخذ بنصيب من الشعر، ولكن على أن "يُحال بين الطلبة وبين رواية أربعة من أضرب الشعر هي الغزل وأشعار التصعك وأشعار التغرب وشعر الهجاء"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> - محمد: الهجاء في الشعر العربي ص ٦.

<sup>٢</sup> - العزاوي: الهجاء بالمرأة ص ٩٣.

<sup>٣</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ١/٣٣٠.

ويعلل ابن حزم رفضه للهجاء، وللهجاء الشعري تحديداً لأنّ "هذا الضرب من أفسد الضروب لطالبه، فإنّه يهون على المرء الكون في حاله أهل السفه من كناسي الحشوش، والمعاناة لصناعة الزمير المتكسبين بالسفاهة والنذالة والخساسة وتمزيق الأعراض، وذكر العورات وانتهاك حُرْم الآباء والأمهات، وفي هذا حلول الدمار في الدنيا والآخرة"<sup>١</sup>.

أمّا على مستوى التطبيق، فقد أكثر ابن حزم من الهجاء في مناظراته، وقد استعرضنا في فصول سابقة كثيراً من العبارات القاسية بحق خصومه، وإطلاقه الأوصاف الجارحة لهم. وما المعجم الذي رتبنا فيه ألفاظ الهجاء إلا شاهد على استخدام ابن حزم المفرط لهذا اللون. ومع أنّ ابن حزم لم يكن بدعا من الأدباء والشعراء الذين أكثروا من الهجاء، لكنّ إكثاره منه يعدّ ظاهرة غريبة على العلماء والفقهاء تحديداً.

وقد كان ابن حزم يأتي بالهجاء مرغماً، حين يضطره خصمه لذلك، وكان أكثر هجائه لليهود ولأصحاب الفرق المخالفة، أو حين يُجافى العقل وتُنكر الحقائق من قبل الخصم، ومع ذلك كله كان يحاول أن يبتعد عن الهجاء المفرط، ولم يقترب أبداً من الكذب. وكان يُصرح -غالباً- باسم المهجو، لأنّه لم تكن تنقصه الشجاعة لذلك، وكان أحياناً يُعرض بهذا الهجاء إذا كان الأشخاص المهجويين لهم مكانة عند الناس، كأصحاب المذاهب مثلاً. وكان يركز في الهجاء على الصفات الخلقية، أمّا العيوب الخلقية فلم يعبأ بها كثيراً. "والملاحظ أنّ السخرية الحزمية التي تطل علينا بين الحين والآخر، ما هي إلا نتاج تلك النبيرة الحادة تجاه من يخاصم، وإمعاناً في تلك الخصومة فإنّه يصور الخصم بكل الصور البشعة الذميمة"<sup>٢</sup>، ويُلاحظ أيضاً أنّ "سخرية ابن حزم لا تظهر إلا في الردود العلمية وكأنها إستراتيجية يتكّى عليها في إظهار الأخطاء"<sup>٣</sup>.

### الثورة عند ابن حزم

لم يكن الهجاء عند ابن حزم إلا عرضاً لشيء أعظم، وتعبيراً عن ثورة كان يحملها بين جنباته، إنّها ثورة في سبيل رؤيته ومشروعه الظاهري. وهنا سنحاول

<sup>١</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٤/٦٨ .

<sup>٢</sup> - المهري: ابن حزم أدبياً ناثراً ص ١٣٩ .

<sup>٣</sup> - المصدر نفسه ص ١٣٠ .

الكشف عن هذه الثورة، والوقوف على أسبابها ودوافعها، ومتابعتها بأشكالها المختلفة؛ اجتماعية أو دينية أو نفسية أو سياسية، وصولاً إلى معرفة نتائج هذه الثورة ومآلها.

إنّ الاقتران الزماني والمكاني بين ابن حزم وعصره ومجتمعه جعل من الثورة أمراً حتمياً، لأنّ ابن حزم بما يملكه من حسّ ورؤية متقدمة جعلته يتأمل هذا العصر ويلاحظ أنّه عصر اختلطت فيه الأمور إلى حدّ الإفساد غير المحتمل<sup>١</sup>. ومن هذا الاختلاط ما شهده عصر ابن حزم من تمكين لليهود وتقريب لهم من جانب الخلفاء، رغم مجاهرتهم بالعداء للإسلام والمسلمين.

كما أنّ شعور ابن حزم "بالنذر التي تهدد الكيان الإسلامي بالأندلس، وبكلّ ديار الإسلام"<sup>٢</sup> جعله أكثر تحفزاً وإقتناعاً بالثورة. وليس هذا وحسب، بل إنّ تزايد النزعات والفرق الإلحادية التشكيكية، والتي تعمل على هدم الإسلام من الداخل، حفزّ هذه الثورة، خاصة أمام تخاذل مهين من المسلمين وحكامهم، أمام هذا المدّ الجارف لتلك الفرق والأفكار.

إنّ ثورة ابن حزم كان يمكن أن تخمد، أو على الأقل أن تكون أكثر هدوء وانسجاماً مع العصر، أو أن تتجه وجهة أخرى لو أنّ ابن حزم لقي من عصره وأبنائه إستجابة كافية، بل على العكس لقد أّجج العداء الذي لقيه من العلماء والحكام تلك الثورة، فكان زاداً إضافياً لها.

إنّ تكوين ابن حزم وإرهاصات حياته، وردّة فعل الآخرين نحوه كانت عوامل أساسية في تفاعله مع مجتمعه على شكل ثوريّ، لأنّ "مواهب ابن حزم العقلية وقدرته الجدالية وحده مزاجه وحيوية فكره هي مؤهلات قادته إلى شنّ ثورة فكرية عارمة على كثير من طوائف العلماء في عصره"<sup>٣</sup>. إضافة إلى أنّ ابن حزم لم يكن في يوم طالب مال، فقد عاش حياته الأولى مدللاً في قصر منيف، فلم يكن في عوز أحد، كما أدّبتّه الأحداث وعلمته أن لا شيء يبقى على حاله، فكان زهده وقوداً للثورة، فلم يكن يتصنّع أو يتزلف لأحد، بل كان صريحاً جريئاً غير هيّاب أبداً<sup>٤</sup>. فإذا كانت حياة اللين قد صقلت

<sup>١</sup> - انظر: متمرّدون لوجه الله ص ٢٤ .

<sup>٢</sup> - الكتاني: إسهام علماء الأندلس في تأصيل الفكر الإسلامي ص ٢٤٠.

<sup>٣</sup> - المصدر نفسه ص ٢٣٨ .

<sup>٤</sup> - انظر: المصدر نفسه ص ٢٤٠ .

جانبا من شخصيته، فإنّ حياة الخشونة والتشرد قد تكفلت بتهذيب الجوانب المتبقية خير تهذيب، فكانت الأحداث تتولى والمصائب تترى عليه، وكلها كانت تُعده كئثر عنيد.

ونؤكد أنّ هذه الثورة هي ثورة فكر وكلمة، لا ثورة سيف وقتال، وإن كان ابن حزم جرّب هذا النوع من الثورات إلى جانب الأمويين، وانتهى به الأمر في السجن، وانتهى الأمر بمن كان ثائراً من أجلهم إلى السقوط، فلم يعودوا يستحقون الخلافة. فإذا فشلت ثورة السيف فإنّ ثورة الكلمة لها شأن آخر .

ولعل أهم ما حقّر ابن حزم للثورة هو ما كان يرجوه من هذه الثورة وينتظره منها، فلم يكن ليضحّي بعلاقاته، ويكسب عدااء الأكثرية دون أن تكون ثورته تستحق ذلك، وقد كان يراها فعلاً تستحق التضحية، لأنها كانت ثورة لإصلاح الناس والسياسة والدين والاقتصاد والعلوم والمجتمع عموماً.

أمّا تفاصيل هذه الثورة، فسنأتي على نماذج منها ضمن النطاقات التالية: ثورة دينية، وثورة إجتماعية، وثورة سياسية، وثورة فنية، وثورة نفسية.<sup>١</sup>

فالثورة أو التمرد الديني عادة ما يتشكل على صورة خروج عن القيم الدينية والاستهتار بها وبرموز الدين، وعدم مراعاة المشاعر الدينية للمتلقي، في الأعمال الإبداعية. لكنّ ثورة ابن حزم الدينية لم تكن ضمن هذا التّشكّل، بل كانت عودة إلى الدين، ومحاولة جديدة لفهمه، وإفهامه للناس بذلك الفهم. ولقد أجبّ هذا الجانب من الثورة الواقع الديني عموماً، فقد انتشر الفجور والتهتك، والنفاق على المستوى الشعبي والنخبوي؛ "إنّ ابن حزم يرى أيضاً أنّ الناس لم تعد تعرف الحلال والحرام فيما تكسبه، وأنّ رجال الدين أنفسهم أصبحوا أدوات تحلل وتبيح الفسق".<sup>٢</sup>

ونستطيع أن نعتبر صيحة ابن حزم ووقوفه في وجه العلماء الرافضين للفلسفة والمنطق، إحدى نماذج الثورة الدينية، فابن حزم مقتنع أنّ فائدة هذا العلم جلييلة، وأنّ رفضها كلياً غير مبرر، ويُعد تعنتاً وجموداً، مما جعله يحاول (أسلمة) هذا العلم في إطار ثورته تلك.

<sup>١</sup> - استوحى هذا التقسيم من بحث: الشتيوي: ظواهر من التمرد .

<sup>٢</sup> - عوض: متمرّدون لوجه الله ص ٢٤ .

أمّا ضمن نطاق الثورة الإجتماعية فنقول: لقد كان المجتمع في نظر كثير من المبدعين خصماً لدوداً، فقد شكّلت القيم الإجتماعية والأعراف والتقاليد لدى هؤلاء المبدعين صخرةً تتكسر عليها آمالهم وتطلعاتهم، فالصعاليك - مثلاً - ثاروا على جور المجتمع، والشعراء العذريون حاولوا الخروج عن قيود مجتمعهم بصور إبداعية شتى. فالمبدع حين يرى أنّ مجتمعه يحولُ بينه وبين الإشباع، "فتشعر الذات بالتهديد والخطر، ويتكون دافع الخوف، الذي إذا زاد على مستوى قدرة الاحتمال يتحول إلى قلق ويسيطر على سلوكه وشخصيته عامة"<sup>١</sup>. وعند كثير من المبدعين يتحول هذا القلق والخوف إلى تمرد ورفض لهذا المجتمع.

لقد لقي ابن حزم من مجتمعه صداً ورفضاً، تحولاً فيما بعد إلى ثورة على هذا المجتمع، فلم يكن ابن حزم يوماً مغرداً داخل سرب مجتمعه، بل كان ينتقده ويجهر بذلك النقد، ويشخص مرضه وداءه. ولنستمع إليه يشكو هذا المجتمع: "وأما جهتنا [الأندلس] فالحكم في ذلك ما جرى به المثل السائر أزهّد الناس في عالم أهله... ولا سيما أندلسنا فإنها خُصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم، الماهر منهم، واستقلالهم كثير ما يأتي به، واستهجانهم حسناته، وتتبعهم سقطاته وعثراته، وأكثر ذلك مدة حياته، بأضعاف سائر البلاد... فتتكسّر لذلك همّته، وتكسل نفسه وتبرد حميته"<sup>٢</sup>.

وفي نطاق الثورة السياسية، فإنّ ما شهده ابن حزم من تقسّم الدولة الأندلسية إلى دويلات وممالك، وتعدد لحكامها الذين استعان معظمهم بالصليبيين لتثبيت عروشهم، جعل من أمر الثورة السياسية عنده أمراً مؤكداً، أمام هذا التطاحن السياسي والتفكك الناتج عنه، وقد سخّر ثورته تلك في الوقوف إلى جانب الأمويين.

هذا الوقوف قرأه البعض على أنّه تعصّب سياسي للأمويين، سخرّ فيه ابن حزم النصوص الدينية لصالحهم. لكنّ القراءة الأكثر دقة أنّ ابن حزم وانسجماً مع تلك النصوص وقف في صفّ الأمويين. على كل حال، فقد خابت ثورة الأمويين، ولحققتها ثورة ابن حزم السياسية.

<sup>١</sup> - الشثيوي: ظواهر من التمرد ص ٩٨ .  
<sup>٢</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ١٧٧-١٧٨/٢ .



أما الثورة الفنية، فقد دأب كثير من المبدعين على مرّ العصور بالثورة على الشكل أو الأطر والأدوات الفنية، وما كانت هذه الثورات إلا مؤشراً على تغيّرات مجتمعية عميقة، وعلى أصعدة عدة. ومن الأمثلة على تلك الثورات الفنية؛ الثورة على عمود الشعر العربي، وعلى بناء القصيدة العربية، وعلى بعض أغراضها، كالوقوف على الطلل مثلاً. أما ابن حزم، فيمكن أن نعدّ كتابه (طوق الحمامة) أنموذجاً على الثورة الفنية والخروج على النمط التأليفي السائد، وثورة من ناحية المبدأ إذ "أنّ الأغلبية ترى أنّ الفقيه العالم بالدين يعيبه أن يتعرض بالدراسة لموضوع شائك مثل الحب بين الرجل والمرأة، ولكنّ ابن حزم لا يروي هذا الموضوع فقط، ولكنّه يصدر فيه كتاباً كاملاً"<sup>١</sup>. أما أسلوب هذا الكتاب، فإنّه يُعد ثورةً فنيّة أخرى؛ "إنّه لا يهدّد في كل سطر بجحيم النار ولا يُغري بالجنة، إنّه طبيب والطبيب يهّمه أولاً أن يُجيد التشخيص للحالة التي أمامه"<sup>٢</sup>.

وفي إطار الثورة النفسية، فمعلوم أنّ صراع الإنسان مع نفسه أمر فطريّ، فالإنسان عادة يكون موزعاً بين رغباته ومبادئه، وبين ما يطمح إليه وبين ما هو ممنوع. لكنّ هذا الصراع يتخذ أشكالاً خاصة عند المبدعين، فقد يظهر على شكل زجر للنفس عن هواها وعن تذكر أيام الصبا، وربّما يكون -أيضاً- على شكل محاولة تركيتها من أخلاقها الذميمة.

وابن حزم الذي عاش صراعاً مع الآخرين، عاش صراعاً داخلياً -أيضاً- لكنّه استطاع ضبط إيقاعه ووضعته في خدمة ثورته الكبرى. وبالطبع لا يُستغرب هذا الصراع الداخلي على رجل توزّع بين الأمل واليأس، وبين ما يطمح إليه وما هو متحقق لديه.

وفي كتاب (مداواة النفوس) لابن حزم ستجد أمثلة عديدة على ثورة ابن حزم وتمرده النفسي، وعلى أخلاقه ودواخله، ومن ذلك ما يحدثنا هو عن نفسه: "كانت فيّ عيوب فلم أزل بالرياضة واطلاعي على ما قالت الأنبياء -صلوات الله عليهم- والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين في الأخلاق وفي آداب النفس، أعاني مداواتها حتى أعان الله عز وجل على أكثر ذلك بتوفيقه ومنّه"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> - عوض: متمردون لوجه الله ص ٤١-٤٢ .

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه ص ٥٦ .

<sup>٣</sup> - ابن حزم: مداواة النفوس ص ٣٨ .

ويذكرُ ابن حزم بعضاً من هذه العيوب والصفات التي ثار عليها ومنها؛ كَلَفٌ في الرضا، وإفراط في الغضب، ومنها دعاية غالبية، وعُجْب شديد، وحركات كانت تولدها غرارة الصبا، ومنها محبة في بُعد الصيت والغلبة، ومنها إفراط في الأنفة، وحقد مفرط.<sup>١</sup> أما نتائج تلك الثورة، فقد دفع ابن حزم ثمناً باهضاً في سبيلها، ففقد الأصدقاء واضطهد ونُفي وشُرِد. ولعلَّ أهم إنجازات هذه الثورة؛ "ما قدّمه ابن حزم من أعمال علمية كانت هادفة في مجموعها نحو تأصيل المنهج الإسلامي في العقيدة والشريعة والأخلاق والسياسة والاجتماع"<sup>٢</sup>.

ولقد كان إحراق كتب ابن حزم حَدَثًا مَهَمًّا في تلك الثورة، فقد أريد ليس فقط لكتب ابن حزم أن تَفْنَى، إنّما أريد إنهاء هذا المشروع التجديدي. وكعادة ابن حزم لم تزده تلك المأساة إلا ثباتاً ومضياً في ثورته ومشروعه، لأنّه كان يعلم أنّ هذا البلاء قرين ملازم للثورات.

### أبعاد المشروع الظاهري عند ابن حزم

لكن على أي أساس بُنيت هذه الثورة التي تحدثنا عنها عند ابن حزم؟ وهل كانت مُفرغة جوفاء؟ أم كانت تحمل مشروعاً معيناً؟

كان ثَمّة مشروع متكامل ضخم بين جنبات تلك الثورة، وإذا استعرضنا (المعجم الهجائي) السابق وجدنا الكلمات التي تحت الجذر (كَذَبَ) هي المهيمنة على الكلمات الهجومية، التي كان ابن حزم ينعث بها خصومه، ويمكن اعتبارها (كلمة مفتاح) على اعتبار أنّها الأكثر حضوراً من ناحية تكرارية. فيما سيأتي، سنحاول تسليط الضوء على (الكذب)، وموقف ابن حزم منه، وما علاقة هذا الموقف بالمشروع الحزمي المتخذ شكل ثورة؟

يُوصف الإنسان بالكذب إذا "أخبر عن الشيء بخلاف ما هو عليه في الواقع"<sup>٣</sup>. وعكسه الصدق وهو: "الوصف للمُخْبَر عنه على ما هو عليه به"<sup>٤</sup>. وقد شنّ ابن حزم حملة ضارية على الكذب، لأنّ عصره الذي عاشه هو "عصر كذب من الحاكم على

<sup>١</sup> - ابن حزم: مداواة النفوس ص ٣٩-٤٠.

<sup>٢</sup> - الكتاني: إسهام علماء الأندلس في تأصيل الفكر الإسلامي ص ٢٧٤.

<sup>٣</sup> - المعجم الوسيط: باب (كذب) ص ٧٨٠.

<sup>٤</sup> - الباجي: كتاب المنهاج ص ١٣.

المحكوم ومن الراعي على الرعية، ومن الأقلية على الأغلبية، ومن القائد على جنوده، ومن الكاتب على قارئه، ومن الخطيب على مستمعيه"<sup>١</sup>.

أمّا موقف ابن حزم من الكذب، فلنسمعه يقول رأيه فيه وفي الكذاب:  
"وما أحببتُ كذاباً قط، وإنّي لأسامح في إخاء كل ذي عيب، وإن كان عظيماً، وأكل أمره إلى خالقه عز وجل، وأخذ ما ظهر من أخلاقه حاشاً من أعلمه يكذب، فهو عندي ماح لكل محاسنه"<sup>٢</sup>.

ويبرر ذلك لأنّ؛ "الكذب أصل كل فاحشة، وجامع كل سوء وجالب لمقت الله عز وجل"<sup>٣</sup>. ولأنّه "لا شيء أقبح من الكذب، وما ظنك بعيب يكون الكفر نوعاً من أنواعه"<sup>٤</sup>. ويعتبر ابن حزم أنّ أصل الكذب "متولّد من الجور والجبن والجهل، لأنّ الجبن يولّد مهانة النفس، والكذاب مهين النفس بعيد عن عزتها المحمودّة"<sup>٥</sup>. من أجل ذلك يؤكّد أنّ "الكذب والخيانة فلم أعرفها بطبعي قط، وكأنني لا حمد لي في تركها لمنافرة جبلتي إياها"<sup>٦</sup>.

وبمنظور أكثر اتساعاً، فإنّ الكذب بما يحويه من خفاء جعل ابن حزم ينفّر من (الباطن) لأنّ هذه الباطنية كانت بنظره تعدّ "الحدود الشرع وإهدار لهذه القداسة التي تتمتع بها هذه اللغة التي نزل بها القرآن الجامع للشرعة"<sup>٧</sup>.

في الحقيقة، كان ارتداد ابن حزم إلى الظاهرية محاولة اقتراب من (الصدق) وفراراً من الكذب، فانبثق من هذا الإقتراب والنفور مشروعه الظاهري. وإنّا إذ تحدثنا فيما مضى من هذه الرسالة عن أثر الظاهرية في مناظرات ابن حزم. فإنّا هنا سنحاول أن نتعرف على هذه الظاهرية على إعتبارها مشروعا حضارياً متخذاً شكل ثورة حزمية. فالظاهرية هي مشروع أيديولوجي نهضويّ، يبشّر بنفسه على أنّه مشروع حضاري، ومن الخطأ الفادح اعتبار هذه الظاهرية مذهباً دينياً وحسب، لأنّ ظاهرية ابن حزم أعمق وأوسع لعمومها مختلف فروع الثقافة؛ من فقه ونحو وتفسير ومنطق وفلسفة. إنّ ثورة ابن حزم المختزلة داخل مشروعه الظاهري لها ما يبررها، فليست القصة هي

<sup>١</sup> - عوض: متمرّدون لوجه الله ص ٣٣ .

<sup>٢</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ١/١٧٣ .

<sup>٣</sup> - المصدر نفسه ص ١/١٧٥ .

<sup>٤</sup> - المصدر نفسه ص ١/١٧٥ .

<sup>٥</sup> - المصدر نفسه ص ٣/٣٨١ .

<sup>٦</sup> - المصدر نفسه ص ١/٣٥٨ .

<sup>٧</sup> - بوقرة: النظرية اللسانية عند ابن حزم ص ٢٦ .

تعصّب ابن حزم لمذهب فقهيّ دينيّ، لأنّ هذا يتناقض مع شخصية ابن حزم وعقليّته الموسوعية، وإثما كان الخلل الاجتماعي والسياسي هو السر في هذه الأمر.

فقد تحوّل الإسلام إلى عقائد و فرق بسبب (التأويل)، وأصبح الكل يتعاطى النص حسب هواه، وبما يبرر له مساره، وقد وُجّه القياسُ لتصويب أفعال وسلوكيات الحكام، فإذا كان هذا التأويل هو مصدر الشر، فلنعد إلى الظاهر، حيث الصفاء والوضوح<sup>١</sup>.

لقد أراد ابن حزم أن يخدم الأمة بثورته تلك، فقد تبلور إنشغاله بوحدة الأمة على شكل مشروع ظاهري، وكان عليه لتوطيد أركان هذه المشروع أن يزعزع الثقة بالمذاهب الأخرى، واعتمد في ذلك النقد العميق أو الشامل؛ وهو نقد يُمارس ويوجه إلى الإشكالية برمتها، ويفحص الأسس والثوابت التي تقوم عليها القضايا المطروحة للنقد ويعرّيها، وقد امتد هذا النقد إلى معظم فروع الثقافة.

كما قدّمت الظاهرية اجراءات جديدة لقراءة النصوص وفق رؤية عميقة تعطي هذا النص السلطة الأولى، وتعتبره بنية متكاملة. كما ارتكزت على الحسّ والعقل والبدئية والتجربة. أمّا على مستوى التشريع فقد وضعت منظومة متكاملة ترفض القياس والإستحسان والرأي. إنّ هذه الظاهرية أصبحت عند ابن حزم مشروعاً متكاملًا، حاول أن يؤثّر في الأحداث، من خلال تصوّر شمولي للكون والإنسان والمعرفة، وحاول وضع نفسه كبديل حضاري.

وإذا أردنا أن نقف عند بعض نماذج تلك الثورة، فلعل خير تلك المسائل هي التي عُدت من المسائل (الشواذ) في الفقه الظاهري. لكنّ النّظر إليها من زاوية أخرى يؤكد أنّها وليدة لتلك الثورة، فقد أفتى ابن حزم بتساوي العبد مع الحرّ، ورأى وجوب (المكاتبة) بينهما، وأنّ للسلطان أن يُجبر السيد على مكاتبة عبده حتى يُحرر نفسه، وأفتى -كذلك- بحرمة بيع الماء بأيّ شكل من الأشكال. وسمح للمرأة أن تتولى المناصب كلها، باستثناء الخلافة.

إنّ مثل هذه النماذج، هي وجهٌ فقهيّ للثورة، لكن من لم تكن الثورة في صالحهم اتهموا ابن حزم أنّه يحرض الفقراء والجباة على الأغنياء، وأنّه يُبيح الماء لمن لا حق له فيه، وأنّه يحرض العبيد على أسيادهم.

<sup>١</sup> - انظر: الكتاني: إسهام علماء الأندلس في تأصيل الفكر الإسلامي ص ٢٤٤.

أمّا إنجازات الثورة؛ فقد استطاع ابن حزم وضع الحرفية بديلاً للغائية في التعامل مع النصوص. ووظف الفلسفة والمنطق في خدمة تلك النصوص. وأعاد الحيوية إلى الظاهرية، التي اندثرت في المشرق تقريباً، وعادت إلى الغرب الإسلامي، حيث أخذ بها المنصور الموحدي في المغرب (٥٨٠-٥٩٥هـ) (١١٨٤-١١٩٩م)، وأتخذت أساساً لحركة سياسية في المغرب ضد دولة المرابطين المغربية<sup>١</sup>.

فقد شكلت الأيديولوجيا الظاهرية والحزمية منطلقاً ثوريا لابن تومرت؛ "وهكذا، فإنّ الجابري يرى في فكر ابن حزم الأساس الاستمولوجي للمشروع الأيديولوجي الذي ناضل ابن حزم من أجله على أساس أنّ ابن حزم (رفض العرفان الصوفي والعرفان الشيعي وعبر عن تيار التجديد في المغرب والأندلس سواء في العقيدة أو في الشريعة أو في اللغة أو في الفلسفة)"<sup>٢</sup>

وهكذا، رأينا أنّ الهجاء عند ابن حزم كان تعبيراً عن موقفه الرفض للكذب المندرج في الخفاء، وكان هذا الهجاء شكلاً للثورة التي اتخذت صورة مشروع ظاهري متكامل.

---

<sup>١</sup> - انظر: الكتاني: إسهام علماء الأندلس في تأصيل الفكر الإسلامي ص ٢٤٢ .  
<sup>٢</sup> - الشباب: القراءة الاستمولوجية للتراث عند محمد عابد الجابري ص ٣٤٤. نقلاً عن نحن والتراث لمحمد الجابري.

### الفصل الثالث

#### شعرية نثر ابن حزم من خلال المناظرات

١- شعرية نثر ابن حزم من خلال المناظرات

٢- روحانية ابن حزم في مناظراته

## توطئة

من اليسير أن يتوقف الدارسُ عند المواطن الشعرية في نصوص إبداعية، شعريّة كانت أو نثريّة، لكنّ الأمر لن يكون بتلك السهولة إذا كان البحث عن مواطن الشعرية في نصوص تفيض جدلاً وخصومة.

إنّ الأدبية والشعرية هي ركيزة في نفس المبدع وروحه، وهذا يحثُّ البحث عنها في هذا البحر المائج من الخصومة والسجّال الكلامي، وبالتأكيد فإنّ نفثات تلك الشعرية ستظهر بين ثنايا تلك المحاولات والمجادلات. إنّ ما يميّز هذا الفصل من الدراسة أنّه يقوم بدور رئيسي في تأكيد أدبية ابن حزم، وأنّ المناظرات لم تقتل تلك الأدبية فيه. وحتى نستطيع الوقوف على مواطن هذه الشعرية وتحليلها لا بد من التعرف على هذه الشعرية عموماً، وعلى علاقتها بالنثر، وعلى أهميتها للنصوص.

يُعرّف (عبد الله الغدامي) الشعرية بقوله: "أمّا مفهوم الشاعرية (Poetics) فإنّه يتركز حول الإجابة عن السؤال التالي: ما الذي يجعل الرسالة اللغوية عملاً فنياً؟... ولذا فإنّ (الشاعرية) انتهاك لقوانين العادة، ينتج عنه تحويل اللغة من كونها انعكاسات للعالم أو تعبيراً عنه أو موقفاً منه إلى أن تكون هي نفسها عالماً آخرًا"<sup>١</sup>. أو هي: "خصيصة علانقية تمنح النص الأدبي فرادته الجمالية، فهي صفة لا تنفرد بها المفردة وحدها بل النظم المتكامل"<sup>٢</sup>.

فالشعريّة تُفرّق النصّ الإبداعي عن غيره من النصوص، فحين تنزاح المفردات عن أصلها الأول، وتتشكل في بنية جديدة داخل سياق جديد فإنّها تكون اكتسبت تلك الصفة. فالطريقة النمطية، أو الدرجة الصفر للكلام ستكون خطاباً عادياً لا شعريّة فيه، فإذا أنتهك أو أخترق هذا النمط فإنّ تلك الأدبية ستظهر، وهي بذلك تتجاوز الأسلوبية وتتقدّم عليها، فتصبح الأسلوبية أحد مجالات الشعرية؛ "والشاعريّة بذلك هي قبسات التحول الإسلوبية، وهي (إستعارة) النص كتطور لإستعارة الجملة، حيث ينحرف النص عن معناه الحقيقي إلى معناه المجازي وهذه سمة لأيّ تعبير بياني"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> - الغدامي: الخطيئة والتكفير ص ٢٢ ، ٢٧ .

<sup>٢</sup> - حمودة : شعرية النثر ص ٨ .

<sup>٣</sup> - الغدامي: الخطيئة والتكفير ص ٢٧ .

أمّا الشعرية كمصطلح نقدي فالبعض يرى أنّه انبثق في مطلع القرن العشرين، بفضل الدراسات والمدارس النقدية المختلفة<sup>١</sup>. إنّ الحديث عن الشعرية يتّجه مباشرة نحو الشعر فهو مهادها الأول. لكن، وبما أنّ الشعر والنثر يُصنعان بواسطة اللغة، وبما أنّ هذه الشعرية هي استعمال غير مألوف للغة، فإنّه من الممكن أن تتجه هذه الشعرية ناحية النثر، بل إنّ (جوليا كريستيفا) ترفض قصّر الشعرية على الشعر، وتعتبر كل "نية هدفها اختزال دائرة الوظيفة الشعرية في الشعر أو حصر الشعر في الوظيفة الشعرية لن تؤدي إلا إلى تبسيط مبالغ فيه وخادع"<sup>٢</sup>.

ويؤكد (طودوروف) أنّ كلمة الشعرية تتعلق بالأدب عموماً، سواء أكان منظوماً أو منثوراً، بل تكاد -حسب وجهة نظره- أن تتعلق بالأعمال النثرية على نحو أكبر<sup>٣</sup>. ويذهب (الغذامي) أبعد من ذلك حين يرى أنّ هذه الشعرية قد تأتي في نصوص غير أدبية، أو "نصوص لم يقصد منشؤها أن تكون أدباء، فهي ليست حكراً على النص الأدبي، ولكنها تستأثر به ويستأثر بها، لأنها سبب تلقيه كنص أدبي، وبدونها لا يحظى النص بسمته الأدبية"<sup>٤</sup>.

وحتى نعدّ لغة النص شعرية فلا بد من شروط منها: الانحراف عن اللغة المعيارية أو الكلام المعياري، وأن تنخفض الوظيفة التواصلية في الكلام إلى أقل درجاتها، وأن تحمل طاقة انفجارية تحقق من خلالها القيمة الإيحائية والتأثيرية. أمّا على مستوى الألفاظ فلا بد أن تحوي ألفاظاً ذات جرس إيقاعي ملائم للإيقاع الذاتي للمتلقى، مع اعتماد التكثيف في بناء الأنساق التركيبية<sup>٥</sup>.

إذاً، فالشعرية ليست ترفاً أو حلية يتزين بها النص، إنّها في الحقيقة سر وجوده، وركيزة أساسية في البناء الأدبي. فهي تحقق للنص سحرية وتأثيراً بالغاً؛ وهذا الانحراف عن التركيب المعياري والدلالي يولد لغة أخرى، يتجاوز فيه المدلول إلى مدلول متشعب، كما يولد قوة اشارية انفجارية، يضعف الدلالة الحقيقية وينتج دلالة إيحائية غايتها الجمال والتأثير والإيضاح<sup>٦</sup>. فالنص يستفيد من الشعرية في تفجير طاقات

<sup>١</sup> - انظر: البياتي: الشعرية في خطب العصر الأموي ص ٩٨ .

<sup>٢</sup> - كريستيفا: علم النص ص ٧١ .

<sup>٣</sup> - انظر: طودوروف: الشعرية ص ٢٤ .

<sup>٤</sup> - الغذامي: الخطبة والتكفير ص ٢٤ .

<sup>٥</sup> - انظر: البياتي: الشعرية في خطب العصر الأموي ص ١٠١ .

<sup>٦</sup> - المصدر نفسه ص ١٠١ .



الإشارات اللغوية فيه، لإحداث أثر انعكاسي يؤسس للنص بنية داخلية تمتلك مقومات التفاعل الدائم، وحسب قدرة القارئ على التلقي<sup>١</sup>.

والشعرية بوصفها منهجا يحاول معرفة القوانين التي تحكم ولادة الأعمال الإبداعية، فهي وخلافاً لكثير من (العلوم) تبحث عن ذلك داخل الأدب ذاته، وعليه، فإنها لا تُعنى دائماً بالأدب الحقيقي وإنما "بالأدب الممكن، وبعبارة أخرى يُعنى [المنهج] بتلك الخصائص المجردة التي تصنع فرادة الحدث الأدبي أي الأدبية"<sup>٢</sup>.

وللشعرية علاقات مع اللغة والصورة والإيقاع والخيال؛ فعلاقتها مع اللغة علاقة وجودية، فهي تنبُع من اللغة لتصف هذه اللغة فهي لغة عن اللغة، تحتوي اللغة وما وراء اللغة. أمّا علاقة الشعرية مع الصورة، فإنّ الصورة أحد أركانها المهمة، ولا يمكن الحديث عن الشعرية بدونها. أمّا الإيقاع والموسيقى فهما عنصران مشتركان بين الشعر والنثر، ونقصد بالموسيقى هنا الموسيقى الداخلية، التي تضبط إيقاع النصوص النثرية<sup>٣</sup>. أمّا الخيال فإنه يُعدّ "مقومًا أساسيًا من مقومات الشعرية، لأنّه يمثل قدرة العقل البشري على الخلق والإبداع"<sup>٤</sup>.

### شعرية نثر ابن حزم من خلال المناظرات

أمّا الشعرية عند ابن حزم فأمرها مناقض لظاهريته، فقراءته للغة تتوقف عند مستواها الأول، ولا تعنيه لغة اللغة أو كوامن النصوص. ويذهب بعض دارسي ابن حزم<sup>٥</sup> إلى أنّ ابن حزم بلغ في أشعاره -خاصة تلك المتعلقة بالحب- حدّ الرمزية الصوفية، وهو الظاهري المتشدد، ويُفسرون ذلك بأنّه هروب روحاني يلجأ إليه ابن حزم كلما ضاقت نفسه بالتشدد الظاهري.

وعلاقة ابن حزم مع الشعر والشعراء لا تخفى، فقد كان شاعراً، وكان أصحابه شعراء مشهورين، كابن شهيد. إنّ حبه للشعر صاحبه منذ صباه، فقد سمع مرة الشاعر

<sup>١</sup> - انظر: الغزامي: الخطبة والتكفير ص ٢٤-٢٤ .

<sup>٢</sup> - طودوروف: الشعرية ص ٢٣ .

<sup>٣</sup> - البياتي: الشعرية في خطب العصر الأموي ص ١٠٣-١٠٧ .

<sup>٤</sup> - المصدر نفسه ص ١٠٥ .

<sup>٥</sup> - إحسان عباس ومحمد أبو صغيليك مثلاً .

(أبو العلاء صاعد بن الحسن) ينشد قصيدة بين يدي (المظفر) في يوم عيد الفطر، فلمّا رأى أبو العلاء استحسان ابن حزم للقصيدة كتبها له بخطه وأنفذها له<sup>١</sup>.

وقد حاول بعض الدارسين تقسيم الكتابة عند ابن حزم إلى أقسام؛ فقسم علمي لا شعرية فيه، وقسم أدبي ظهرت فيه تلك الشعرية. وبعضهم قسمها تبعاً لمراحل حياته، أو تبعاً لفترة إصابته بالمرض<sup>٢</sup>. المهم في الأمر أنّ ابن حزم كان يفيض شاعرية، فمثلاً، إذا كان كلامه عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فإنّه "يذوب رقة ولطفاً وينقلب الأديب الحاني الظريف"<sup>٣</sup>.

فقد بلغ ابن حزم درجة من الإتقان النثري، فالألفاظ المفردة "منتقاة انتقاء رائعاً، بحيث تكون كل كلمة مع أختها، ولها جرس حلو يتفق مع موضوعاتها، والأسلوب متماسك رصين يُعدّ من قبيل السهل الممتنع الذي لا عوج فيه، ولا اضطراب في موسيقاه، ليس فيه تكلف واضح، بل هو مسترسل ينساب بنغمات عذبة في النفس"<sup>٤</sup>.

حتى أنّ هذه الشعرية تظهر في مواضع ليست من ميادينها، كالفقه الذي لا يغلب عليه الأدبية والسهولة، لكنّه عند ابن حزم "واضح بيّن مختار المفردات، مشرق العبارات، يقرؤ° وكأنّه أبواب مغرية من الأدب الرفيع، يصير الأديب فقيهاً والفقيه أديباً، حتى كأنّ الفقه والأدب صنوان لا يفترقان"<sup>٥</sup>.

ولكن ما الذي يربط بين الشعرية والمناظرة؟ فالمناظرة تقوم على الحجاج العقلاني، والأدلة المجردة الجافة! في الحقيقة هناك ما يربط بين الأمرين، أولاً؛ أنّ صاحب المناظرة (ابن حزم) يملك حساً أدبياً شعرياً، فهو شاعر بليغ مجيد. وثانياً؛ بما أنّ المناظرة تهدف إلى التأثير والإقناع، وهذا -بالطبع- يحتاج بالإضافة إلى الحجج والبراهين إلى تأثير على الوجدان، من خلال الصور والخيال، لأنّ المخاطب أو المتلقي هو إنسان تأسره الكلمة، ويأخذ بلبه جمال التصوير.

ولنختبر الآن شعرية نثر ابن حزم، ونستعرض نماذج متعددة من مناظراته برزت فيها هذا السمة، ونرى ما هي الأدوات التي أعطت لهذه النصوص شعريتها؟ ثم نرى ما الأثر الذي تركته هذه الشعرية على نصوص المناظرة؟

<sup>١</sup> - انظر: الظاهري: نواذر ابن حزم ص ١٠٣/١. نقلا عن جذوة المقتبس للحميدي.

<sup>٢</sup> - انظر: أبو زهرة: ابن حزم حياته وعصره ص ٩ و ١٧٢.

<sup>٣</sup> - لجنة موسوعة الفقه الإسلامي: معجم فقه ابن حزم الظاهري ص ٥٦.

<sup>٤</sup> - أبو زهرة: ابن حزم حياته وعصره ص ١٧٢.

<sup>٥</sup> - هكذا وردت في النص. وصوابها يُقرأ.

<sup>٦</sup> - لجنة موسوعة الفقه الإسلامي: معجم فقه ابن حزم الظاهري ص ٥٦.

(١) "يا أخي يا أبكر سلام عليك، سلام أخ مشوق طالبت بينه وبينك الأميال والفراسخ، وكثرت الأيام والليالي، ثم لقيك في حال سفر ونقلة، ووادّك في خلال جولة ورحلة، فلم يقض من مجاورتك مطلب"¹.

يفيض هذا النص بمشاعر الشوق، التي يبوح بها ابن حزم، فصديقه (أبو بكر) له ذكريات عديدة مع ابن حزم، ومن بين هذه الذكريات ذكريات السجن، فقد أسرا معاً. لقد حشد ابن حزم تقانات عديدة في هذا البوح؛ فكرر النداء (يا أخي)، (يا أبا بكر). وكرر السلام (سلام عليك)، (سلام أخ). وحين وصف نفسه بالاشتياق عدّل عن الصيغة الأكثر شهرة (مُشتاق) إلى (مشوق). كما ضبط إيقاع هذا النص من خلال الازدواج، والسجع (أربا)، (مطلباً). كل هذا مكنه من نقل مشاعر الشوق بصدق وجمالية أكبر.

(٢) "لما ضمّنا المجلس الحفل بأصناف الآداب، والمشهد الأهل بأنواع العلوم، والقصر المعمور بأنواع الفضائل، والمنزل المحفوف بكل لطيفة وسعة من دقيق المعاني وجليل المعالي، قرارة المجد ومحل السؤدد ومحط رحال الخائفين، وملقى عصا التسيار، عند الرئيس الأجلّ، الشريف قديمه وحسبه، الرفيع حديثه ومكتسبه"².

يحضى هذا النص بشعرية الوصف، فحين أراد ابن حزم وصف مجلس (أبي عبد الله محمد بن قاسم صاحب البونت)³، حشد عدداً كبيراً من الصفات، وربط بينها بالسجع حيناً، وبالازدواج حيناً آخر. وفي هذا اللاحاح الوصفي نجد أنّ الصورة تتشكل تدريجياً عند المتلقي، وتزداد وضوحاً بعد كل وصف، منعمة بموسيقى داخلية أحسن ابن حزم ضبطها.

(٣) "أشهد الله تعالى خالقي وباعثي بعد الموت والملائكة والأنبياء والمرسلين والناس أجمعين والجن والشیاطين أنّي كافر برب يكون بين الخرب ويطلب البركة من كلب اليهود"⁴.

إنّ (الصدمة) لوجدان المتلقي هي أهم معالم شعرية هذا النص، الذي تلاعب ابن حزم في تراكيبه بمهارة فائقة، والتي رغم دلالتها السلبية فقد مزجها ابن حزم بالمعنى

¹ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٢/١٧١ .

² - المصدر نفسه ص ٢/١٧٢ .

³ - المصدر نفسه ص ٢/١٧٢ .

⁴ - المصدر نفسه ص ٣/٦٥ .

الإيجابي؛ فكلمة (كافر) و(ربّ يكون بين الحرب) ستتلاشى سلبيتها إذا ارتبطت بموقف الخصم، وستشكل ضربه له للإفافة من غيّه.

(٤) "ربما ألمّ به [أي بالشيخ المعلم] بعضهم [خصوم ابن حزم] إلمام من لا يدري ما يطلب، يخرجون من عنده كما دخلوا، لم يعتدّوا قطّ عنه كلمة، ولا اهتبلوا بما يروي بلفظة، إنّما يقعدون عنده قعود راحة، إذا لم يكن عليهم شغل"<sup>١</sup>.

تظهر أدبية النص السابق من خلال الرسم الساخر لهؤلاء الخصوم الجهال الكسالي، وقد اعتمد هذا الرسم على الجمل الفعلية (المّ، يدري، يطلب...) والتي تدل بمعناها الإيجابي على سبل تحصيل العلم. لكنّ الأمر مع هؤلاء الخصوم مختلف تماماً؛ فهم في حركة دائبة، لكنّها مفرغة من النتائج الإيجابية. وهذا - تحديداً - عمق (المفارقة) وجعلها عماداً للنص، والتي أكسبته بدورها أدبيته وشعريته.

(٥) "وليت شعري على ماذا يحصل المسكين الذي يطلب العلم ليحظى به في دنياه، والله لا حصل من ذلك إلا على دنيا منغصة، ولباس خشن، ولذات يستتر بها استتار الغراب بسفاده ولا يتنهاها موفورة"<sup>٢</sup>.

إنّ الشعرية في هذا النص ركن لن يقوم النص بدونه، فالمخاطب أو المقصود هو الوجدان لا العقل، إذ إنّ الموقف من الحياة والنظرة إليها موقف نفسي. وقد أدرك ابن حزم ذلك، فاخترع صوراً بشعة للحياة، وأشاع لوناً سوداوياً قائماً عنها. ففضلاً عن القسم التأكيدي (والله)، فقد استخدم ابن حزم كلمات ذات إيحاء منقّر؛ (منغصة)، (خشن)، (غراب)، وزاد على الكلمة الأخيرة - بما تحمله من رمزية سلبية - توصيفاً مبتذلاً للعملية الجنسية. كل ذلك ليبثّ في روع متلقيه أنّ العلم ليس هدفه الدنيا إنّما الآخرة.

(٦) "فلتعلم أنّ الكاغد مخسور في نسخه، بل المداد تفاهة قدره"<sup>٣</sup>. بهذا الوصف المبالغ فيه يصف ابن حزم كلام خصومه، وهذه المبالغة أعطت للنص سخرية أكبر، وقدرأ أكبر من الحطّ من مكانة أولئك الخصوم.

<sup>١</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٨٢.

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه ص ٣/١٧١.

<sup>٣</sup> - المصدر نفسه ص ٣/١٩٣.

(٧) "فخيب الله سعيهم، وأبطل بغيهم، وله الشكر واصباً... فأظهر الله في ذلك عوارهم وأبدى عارهم، وهو أهل الطَّوْل والمُتَّة علينا أبداً، فعاد جدّهم حسيراً، وحدّهم كسيراً، وحسبنا الله ونعم الوكيل"<sup>١</sup>.

إنّ أدبية هذا النص تظهر من خلال كسر ابن حزم لنمط الكتابة العادية، واستخدامه التقانات البديعية والبيانية بشكل مفاجيء، مما يعطي هذه المواضع أهمية إضافية لدى المتلقي. فقد جاءت كلمتا (سعيهم) و (بغيهم) مسجوعتين ومتقاربتين الصياغة الصرفية، كما أكسبهما تجاوزهما معنى سلبياً (السعي) فلم يكن سعي هؤلاء الخصوم من السعي المشكور أبداً. كما أنّ الجناس بين (عوارهم) مع (عارهم) وبين (جدهم) مع (حدهم) أضفى مسحة أدبية على شكوى ابن حزم من خصومه.

(٨) "فإنّ لإبليس اللعين ههنا مسلكاً حفيّاً ومدبّاً لطيفاً ومولجاً دقيقاً، يحبط به الأعمال ويهلك به الرجال، أجارنا الله من كيده وبغيه"<sup>٢</sup>.

يحاول ابن حزم أن يرسم صورة لأسلوب إبليس في تعامله مع البشر، ويعتمد في ذلك على تتابع النعوت، ويحشد لذلك صيغاً صرفية متشابهة؛ (مسلكاً)، (مدبّاً) (مولجاً)، وكذلك (خفياً)، (لطيفاً)، (دقيقاً)، كما أعطت ألف تنوين النصب إيقاعاً مريحاً للسامع.

<sup>١</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١١٦ .

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه ص ٣/١٧٠ .

## روحانية ابن حزم في مناظراته

غلب على ابن حزم الجفوة واليبوس لظروف موضوعية وذاتية. وكان دائمَ القرب من ناحية العقل، وأبعد عن القلب والوجدان. ومع كل هذا، فإنه كان له صلة روحانية بخالقه، ومسحة من زهد وخوف، نلمحها في ثنايا مناظراته؛ فكثيراً ما نسمعه يردّد بين إجابة وأخرى قوله: "وحسبنا الله ونعم الوكيل"<sup>١</sup>، وقد شكلت له هذه العبارة ارتكازاً، وأعطاته توازناً عاطفياً وروحانياً في مواجهة خصومه.

(١) "ونحن نسأل الله تعالى العافية والغنى ونعوذ بالله من البلاء والفقر"<sup>٢</sup>.

(٢) "أعاذنا الله من عذابه"<sup>٣</sup>.

تكثر أشباه هذه الدعوات والالتجاءات إلى الله تعالى عند ابن حزم، فابن حزم في خضمّ معاركه لم ينسَ غايته، ولم يفقد بوصلته نحو خالقه. فرغم جفاف الموضوعات، واحتدام المناقشات العقلية، كان ثمة مسحة وجدانية، وخيط روحاني ينظم كل مناظراته. أمّا اللين وخفض الجناح فتلك خصلة لم تتوافر عند ابن حزم، ولا حتى في حدودها الطبيعية، وإما كان له بعض الفلتات بألفاظ أو عبارات حانية، وكانت بالطبع للمقربين منه، ولمن لم تتسع الشقة بينهم وبينه.

(١) فأحياناً يبدأ ابن حزم ردّه وجوابه بقوله: "سلام عليكم أيّها الأخوة الفضلاء والصّدقاء الكرام، المغتبط بودهم، الذي هو أفضل من القرابة الواشجة"<sup>٤</sup>. فيكسب ودّ المخاطب، ويأسر لُبّه.

(٢) وأحياناً يُظهر فرحه وبهجته بسلامة أصحابه؛ "وأورد علي صاحبنا أبو عبد الله محمد بن الحسن -أكرمه الله- من خبرك ما أبهجني، وملاً نفسي سروراً"<sup>٥</sup>.

إنّ مثل هذه العواطف ليست غريبة على ابن حزم عموماً، لكنّ غرابتها هنا في أنّها جاءت في مواطن المناظرات والردود. فابن حزم من أفضل من يحكي عن الحب والمحبين، وعن الأصدقاء والأحباب، وكتابه (طوق الحمامة) خير شاهد على ذلك.

<sup>١</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٢١٠.

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه ص ٣/٢٢٩.

<sup>٣</sup> - المصدر نفسه ص ٣/٢١٩.

<sup>٤</sup> - المصدر نفسه ص ٣/١٤٣.

<sup>٥</sup> - المصدر نفسه ص ٣/١٨٧.

٣) "فأعِيْذْكَ بِاللّٰهِ مِنْ أَنْ يَجُوزَ هَذَا عِنْدَكَ"<sup>١</sup>.

٤) "ثُمَّ السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْمَحْمُودُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ"<sup>٢</sup>.

٥) "وَقَفْنَا لِلَّهِ وَإِيَّاكَ لَعَلَّكَ لَعْلَمَ يَقْرُبُ مِنْهُ وَعَمَلٌ يَرْضِيهِ"<sup>٣</sup>.

٦) "نَضَّرَ اللَّهُ وَجْهَهُ وَأَكْرَمَ مَنْقَلَبَهُ"<sup>٤</sup>.

إنَّ عبارات اللين و السلام والتحبب تعكس نفسية ابن حزم المُحبة لهؤلاء  
المخاطبين، كما تحمل بُعداً منفعياً يتجلى في محاولة التأثير على هؤلاء، من خلال  
تحفيز مشاعرهم وكسب مودتهم. كما كانت هذه العبارات رداً للجميل، لأنَّ هؤلاء قد  
دافعوا عن ابن حزم ووقفوا إلى جانبه.

---

<sup>١</sup> - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٢٠٠ .

<sup>٢</sup> - المصدر نفسه ص ٣/٢٠٣ .

<sup>٣</sup> - المصدر نفسه ص ٣/٢٠٧ .

<sup>٤</sup> - المصدر نفسه ص ٣/١٨٩ .